نَظَرَاتٌ بَلاغِيَّةٌ فِي رِيَاضِ الخُطبِ النُّباتِيَّةِ
خُطْبَةٌ فِي المَوْتِ وَالْمَعَادِ لابنِ نُبَاتَةَ الفارقيِّ
"أُنْمُوذَجًا"

د/ وديدة عبد الظاهر السيد الشناوي

مدرس البلاغة والنقد

كلية الدراسات الإسلامية والعربية بنات القاهرة

ملخَّص بحث:

نَظَراتٌ بَلاغِيَّةٌ فِي رِيَاضِ الخُطبِ النُّباتِيَّةِ

خُطْبَةٌ فِي المَوْتِ وَالْمَعَادِ لابنِ نُبَاتَةَ الفارقيِّ "أُنْمُوذَجًا"

إنَّ عصَبَ الْحَياةِ الفِكْرِيَّةِ يَكْمُنُ فِي إثارتِها واسْتِثارتِها، ودَفْعِها نحْوَ الْمَغْزَى والْمَقْصِدِ بأسْمَى أَدواتِ الإِقْناعِ الذِّهْنِيِّ، والنَّفْسِيِّ، والْحِجَاجِيِّ، وسَبيلُ كُلِّ ذلِكَ اللُّغةُ المُؤثِّرةُ السَّاحِرَةُ، وهذهِ الخصائِصُ تتوفَّرُ فِي ألوانٍ كثيرةٍ من الأنْماط اللِّسانيَّةِ، وتحْتلُّ الْخَطَابةُ المرتبةَ العُظْمَى؛ إذْ تقُومُ على الكلماتِ والجُملِ الآسِرةِ للقلبِ، والمُهيِّجةِ للعقلِ، والمُحرِّكةِ للْمشاعِرِ، وهذا ما حاولتُ إثْباتَه منْ خِلال بحْثي، وهو أنَّ للخَطَابةِ دورًا مُهمًّا في إصلاحِ المجتمعِ، والنُّهُوضِ به، وإيقاظِ هِمَمِهِ؛ فقد بات واضحًا أنَّ الخطابةَ فنٌّ قيِّمٌ من فنونِ القولِ، له أثرٌ عظيمٌ في استمالةِ المُخاطَبين، والتأثيرِ فيهم، وإقناعهم.

ومن بينِ تلك الخطبِ خُطبُ العلَّامة الشيخِ خطيبِ الخُطباءِ عبد الرحيم محمد ابن نُبَاتةَ الفارقيِّ (ت ٣٧٤هـ)؛ هذه الخُطبُ كترٌ أدبيٌّ ثمينٌ، ومعينٌ لا ينضبُ، يُعينُ خطيبَ اليومِ على تقويمِ خُطَبِهِ، وبثِّ المعاني الفاضلة، والآداب الحسنة في نفوسِ المخاطبين، ويُحرِّكُ في نفوسِهِمُ المسارعةَ إلى الخيرِ والعملِ الصالحِ.

وقد اخترتُ خطبةً من خطبِ ابن نباتةَ الفارقيِّ في ذكر الموتِ والمعادِ، اتجهتُ نحوها؛ لدراستها دراسةً بلاغيَّةً تُبرزُ سماتِ ألفاظِها، وخصائصَ تراكيبِها، وما يَمتازُ به أسلوبُها.

الكلمات المفتاحيَّة:

ابن نُبَاتةَ الفارقيِّ (ت ٣٧٤هـ)، الخَطَابةِ، ذكر الموتِ والمعادِ، العصرِ العبَّاسي الثَّاني، الإِقْناع الذِّهْنيّ والْحِجَاجِيّ، دراسةً بلاغيَّةً، سماتِ الألفاظِ، خصائص التراكيبِ، مميزات الأسلوب.

Abstract

Rhetorical Studies in the Light of Ibn Nubatah's Orations:

An Oration on "Death and Resurrection" by Ibn Nubatah Al-Fariqi as a Case Study

Dr. Wadida Abd Al-Zahir Al-Sayed Al-Shennawi

Lecturer of Rhetoric and Criticism at the Faculty of Islamic and Arabic Studies for Girls – Cairo

The backbone of the intellectual environment lies in questioning, convincing and driving minds towards realizing objectives through the means of mental, psychological, and argumentative persuasion. The empowering means for this is the impressive and charming language. These features exist in many linguistic patterns. At the top of these patterns is oration, which relies on the use of impressive words and sentences that attract minds and stir emotions. The current research attempts to prove that orations have a reformative role in the society through encouragement. It is clear that oration is a valuable rhetorical art that has a great impact in attracting the audience's attention, influencing and convince them.

Among these orations are those given by the great scholar and one of the best orators, Abd Al-Rahim Muhammad Ibn Nubatah Al-Fariqi (d. 374 A.H.). These orations are a precious literary treasure that can help today orators to improve their orations, promote good manners among the audience, and encourage them to

compete for the sake of goodness and righteous deeds.

The researcher has selected one of Ibn Nubatah's orations about "Death and Resurrection" to conduct a rhetorical study that highlights the linguistic features of its structures and style.

Key Words:

Ibn Nubatah Al-Fariqi (d. 374 AH) – Oration – Death and Resurrection – the Second Abbasid Age – Intellectual and argumentative Persuasion – Rhetorical Study – Features of the Words – Features of the Structures – Stylistics.

***

مقدمة

الحمدُ للهِ ذِي الْجَلَالِ والْكَمالِ، المُتفضِّلِ على عِبادِهِ بالآلاءِ، وكريمِ الخِصَالِ والإِفْضالِ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على صاحِبِ الجمالِ، هادي الأُمَّةِ منَ الزَّيْغِ والضَّلالِ، وعلَى آلِهِ وصحْبِهِ، ومنْ تَبِعَ نَهْجَهُ ولزِمَ سُنَّتَهُ باعْتِدالٍ، وسلَّمَ تسْلِيمًا كَثيرًا.

أمَّا بعْدُ ...

فإنَّ عصَبَ الْحَياةِ الفِكْرِيَّةِ يَكْمُنُ فِي إثارتِها واسْتِثارتِها، ودَفْعِها نحْوَ الْمَغْزَى والْمَقْصِدِ بأسْمَى أَدواتِ الإِقْناعِ الذِّهْنِيِّ، والنَّفْسِيِّ، والْحِجَاجِيِّ، وسَبيلُ كُلِّ ذلِكَ اللُّغةُ المُؤثِّرةُ السَّاحِرَةُ، وهذهِ الخصائِصُ تتوفَّرُ فِي ألوانٍ كثيرةٍ من الأنْماط اللِّسانيَّةِ، وتَحْتلُّ الْخَطَابةُ المرتبةَ العُظْمَى – ولا يُمكِنُ أنْ أقُولَ الأُولَى؛ فللشِّعْرِ تأثيرُ ما لِلْخَطابةِ أيضًا– في التَّأْثِيرِ والْإِقْناعِ؛ إذْ تقُومُ على الكلماتِ والجُملِ الآسِرةِ للقلبِ، والمُهيِّجةِ للعقلِ، والمُحرِّكةِ للْمشاعِرِ، ومنْ هُنا كانتِ انْطِلاقَتِي مِنْ واحةِ الخَطَابةِ خَاصَّةً، وإنَّ أكْثَرَ ما يُقوِّمُ الْمَرْءَ ويهْدِيهِ ويُصْلِحُهُ ويُهذِّبُهُ ويُعِينُهُ على الاسْتِقامةِ في حياتِهِ، فيهْتدِيَ ولا يَضلّ طريقَهُ؛ تذكيرُهُ بحقيقةٍ ماسَّةٍ مُلِحَّةٍ، هِي مِنَ الْأهمِّيَّةِ بمكانٍ في نفْسِ كُلِّ إنْسانٍ، وهي حقائِقُ نهايةِ الْمَصائِرِ، وحقائِقُ الْعواقِبِ فِيه، وطبيعتُها ومآلُ كُلٍّ فيها؛ لذا آثرتُ القَوْلَ في قِطْعةٍ بيانيَّةٍ فَذَّةٍ منْ خُطَبِ أحدِ الأعلامِ في هذا المَجالِ؛ للوُقُوفِ على الجانبِ البيانيِّ لِتَمْثِيلِ الكلمَاتِ في الذِّهْنِ، واسْتِقبالِها بِشتَّى وسائِلِ الإِقْناعِ.

وهذا ما حاولتُ إثْباتَه منْ خِلال بحْثي، وهو أنَّ للخَطَابةِ دورًا مُهمًّا في إصلاحِ المجتمعِ، والنُّهُوضِ به، وإيقاظِ هِمَمِهِ؛ فقد بات واضحًا أنَّ الخطابةَ فنٌّ قيِّمٌ من فنونِ القولِ، له أثرٌ عظيمٌ في استمالةِ المُخاطَبين، والتأثيرِ فيهم، وإقناعهم.

ومن بين تلك الخطبِ خُطبُ العلَّامة الشيخِ خطيبِ الخُطباءِ عبد الرحيم محمد ابن نُبَاتةَ الفارقيِّ (ت ٣٧٤هـ)؛ هذه الخُطبُ كترٌ أدبيٌّ ثمينٌ، ومعينٌ لا ينضبُ، يُعينُ خطيبَ اليومِ على تقويمِ خُطَبِهِ، وبثِّ المعاني الفاضلة، والآداب الحسنة في نفوسِ المخاطبين، ويُحرِّكُ في نفوسِهِمُ المسارعةَ إلى الخيرِ والعملِ الصالحِ، وصدق اللهُ -عزَّ وجلَّ- إذ يقولُ:﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣﴾[فصلت، ٣٣].

وقد اخترتُ خطبةً من خطبِ ابن نُباتةَ الفارقيِّ في ذكر الموتِ والمعادِ، اتجهتُ نحوها؛ لدراستها دراسةً بلاغيَّةً تُبرزُ سماتِ ألفاظِها، وخصائصَ تراكيبِها، وما يَمتازُ به أسلوبُها.

خُطَّةُ البحثِ:

قسَّمتُ البحثَ إلى مقدِّمةٍ، وتمهيدٍ، ومبحثَيْنِ، وخاتمةٍ، وذلك على النَّحْوِ الآتي:

- **تمهيدٌ** فيه نُبذةٌ عنْ فنِّ الخَطابةِ، والتَّعْريفِ بابن نُباتَةَ الفارقِيِّ.
- **المبحثُ الأوَّلُ:** تحليلُ الخُطْبةِ محلَّ البحثِ تحليلًا بلاغيًّا، من حيثُ ألفاظُها، وتراكيبُها، وصورُها.
- **المبحثُ الثَّاني:** بيانُ خصائصِ الخُطبةِ محلَّ البحثِ، وسماتِ أسلوبها.
- **الخاتمة:** ذكرتُ فيها أهمَّ النتائجِ التي توصَّلْتُ إليها في هذا البحث.

***

التمهيد

أوَّلا: نبذةٌ عن فنِّ الخطابةِ، تعريفِها، أهميَّتِها، ونشْأتِها، حتى زمنِ ابنِ نُباتةَ الخطيبِ

الخطابةُ ضربٌ من النَّثْرِ الفنيِّ، وهي في اللُّغةِ مصدرٌ كالخِطابِ، وهو توجيهُ الكلامِ نحوَ الغيرِ للإفهامِ، وفي اصطلاحِ الحكماءِ مجموعةُ قوانينَ يقتدرُ بها على الإقناعِ المُمْكِنِ في أيِّ موضوعٍ يُرادُ، والإقناعُ حملُ السامعِ على التسليمِ بصحَّةِ القولِ، وصوابِ الفعلِ أو التركِ[1].

والخطابةُ علمٌ لهُ أصولٌ وقوانينُ تُمكِّنُ الدَّارسَ لها من التَّأثيرِ بالكلامِ، وتُعرِّفُهُ وسائلَ الإقناعِ بالخطابِ في أيِّ غرضٍ من الأغراضِ الكلامية[2].

وفنُّ الخطابةِ طريقٌ من طُرُقِ الإرشاد؛ بل "هو أشدُّ طُرُقِهِ أثرًا في النفوسِ، إذا كانتِ الخطابةُ صادرةً من قلوبٍ مُخلِصةٍ، طاهرةٍ طيِّبةٍ، وكان لصاحِبِها من طلاقةِ اللسان ما يُحسِنُ التعبيرَ به عمَّا يُكِنُّهُ الفؤادُ"[3].

وللخَطابةِ فضلٌ عظيمٌ وغايةٌ جليلةٌ؛ إذ هي علمٌ أصيلٌ، يتحقَّقُ من خلاله إرشادٌ، وتنبيهٌ، وتعليمٌ، واستمالةٌ للنفوسِ، وإثارةٌ للمشاعرِ، وتذكيرٌ، وتخويفٌ، وتحذيرٌ، وهدايةٌ للضالِّ، وتأليفٌ بين القلوبِ،...وغيرُ ذلك من المعاني التي يحتاجُ إليها الناسُ -على اختلافِ صُنوفِهِم وأحْوالِهِمْ- في إصلاحِ أمورِ دينِهِمْ ودنياهُمْ.

---

(١) يُنظر: فن الخطابة وإعداد الخطيب، للشيخ علي محفوظ، ١٣، دار الاعتصام، ١٩٨٤م.

(٢) السابق، ١٤.

(٣) إصلاح الوعظ الدينيّ، للمرحوم: محمد عبد العزيز الخولي، ١٤، مطبعة الاستقامة بالقاهرة، ط٤، ١٣٣٧هـ- ١٩٥٨م.

ولهذا الفنِّ ثمراتٌ كثيرةٌ؛ فالخطابةُ "تفضُّ المشاكلَ، وتقطعُ الخصوماتِ، وتهدِّئُ النُّفوسَ الثَّائرة، وتُثيرُ حماسةَ ذوي النُّفوسِ الفاترةِ، وترفعُ الحقَّ، وتَخْفِضُ الباطلَ، وتُقيمُ العدلَ، وتَرُدُّ المظالمَ، وهي صوتُ المظلومينَ، وهي لسانُ الهدايةِ"(١).

والخطابةُ قديمةُ العهدِ؛ اذْ يستعملُها الإنسان في التعبير والإبانةِ، والإقناعِ، والدفاعِ، والدعوةِ، والإرشادِ، فلا بُدَّ من وجودِها، فهي قديمةٌ تُولدُ مع الإنسان، لا يتخلَّى عنها أبدًا.

وكان أول ظهورٍ لهذا الفنِّ مُدوَّنًا في أواخر القرنِ الرابعِ قبل الميلادِ، سنة(٣٢٢) ق.م، حيثُ ظهر أرسطو زعيمُ فلاسفةِ اليونانِ، ونشر كتابَهُ (الخطابةَ)؛ مُدوِّنًا فيه كُلَّ ما يخُصُّ هذا الفنَّ(٢).

وقد كانتِ الخطابةُ العربيَّةُ في العصرِ الجاهليِّ (١٥٠عامًا قبلَ بعثةِ النبيِّ(ﷺ) حيَّةً ناهضةً؛ لتوافُرِ الدَّواعي إليها، ووجودِ ذوي اللَّسَنِ والبيانِ.

وأخصُّ ما تمتازُ به المعاني الخطابيَّةُ عند العربِ صدقُها، وعدمُ وجودِ الإغراقِ فيها؛ وذلك لما فيهِم من صراحةٍ، وحبٍّ للصِّدقِ وللحقيقةِ.

وكانتِ المعاني في تلك الخطبِ الجاهليَّةِ اجتماعيَّةً، وخُلُقيَّةً عاليةً، ولكنَّها في جُملتِها ليستْ مبنيَّةً على دراسةٍ وبحثٍ، بل هي صورةٌ لتجاربِ الحياةِ، تجيءُ على الألسنة من غيرِ كدٍّ للذِّهْنِ، ولا تعمُّقٍ في الدَّرسِ.

---

(١) الخطابة أصولها- تاريخها في أزهر عصورها عند العرب، للإمام محمد أبي زهرة، صـــ٢١، دار الفكر العربي، ط٢، ١٩٨٠م.

(٢) يُنظر: فن الخطابة وإعداد الخطيب، صـــ٢١.

ولَمْ يُلاحظْ في المأثورِ من الخُطبِ الجاهليَّةِ حُسنُ الافتِتاحِ، وتنسيقُ الموضوعِ، وتجْزئتُهُ، ثُمَّ حُسنُ اختِتامِهِ؛ لأنهم كانوا يرْتجلون الكلامَ ارتِجالًا؛ لذلكَ لَمْ تكُنْ خُطَبُهُمْ مُنسَّقةً مُجزَّأةً، وكان أسلوبُهُمُ الكلاميُّ لا تكلُّف فيه ولا صناعة؛ لعدمِ عنايتِهم بتهيئةِ القولِ؛ ولذلك خلا من المُحسِّناتِ اللفظيَّةِ، لكنَّهُ لم يخْلُ من السَّجْعِ[1].

أمَّا الخطابةُ في عصرِ صدرِ الإسلام (من بعثةِ النبيِّ (ﷺ) حتى سنة ٤٠هـ)؛ فقد كانَ لها شانٌ عظيمٌ، حيثُ كان ظهورُ الإسلام وبعثةُ خير الأنام (ﷺ) من أهمِّ الدوافعِ - بل هي الدافعُ- إلى تحريكِ الخطابةِ وانتشارِها، وعلوِّ درجة البيانِ والفصاحةِ فيها، وكيف لا ، وقد بدأ طور الخطابةِ الإسلاميةِ بظهورِ النبيِّ (ﷺ) خطيبًا غيرَ شاعرٍ.

ولأمرٍ مَّا جعلها الشارعُ شعارَ كلِّ إمامٍ في حَفْلٍ دينيٍّ أو سياسيٍّ؛ كالجمعةِ والعيديْنِ، وموسمِ الحجِّ الأكبرِ، وعند أخذِ العُدَّةَ للجهادِ، وفي كلِّ أمرٍ جامعٍ لنشْرِ فضيلةٍ، أو نهيٍ عن رذيلةٍ، أو إعلانِ نصرٍ، أو تأكيدِ وصيَّةٍ عامَّةٍ أو خاصَّةٍ....

لذلك كان سُعاةُ النبيِّ (ﷺ) ورسُلُهُ إلى الملوكِ، وأمراءُ جيوشِهِ وسراياه، ثُمَّ خلفاؤُهُ من بعدِهِ، وعُمَّالُهُم؛ كلُّهُم خُطباءَ مصاقعَ[2]، وذلك بفضلِ القران الكريمِ الذي يُوشِّحونَ بهِ خُطَبَهُم؛ لأنَّهُ المَثَلُ الأعلى، والحديثِ الشريفِ الذي يُزيِّنونَ به كلامَهُم، وهذان العمادانِ كانا العاملَ الأكبرَ في نهضةِ الخطابةِ في هذا العصرِ.

ثُمَّ جاء العصرُ الأموي(٤٠هـ - ١٣٢هـ) بأحداثِهِ الدَّامية التي ظهرتْ في أواخر عهد الخليفةِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ - رضي الله عنه-؛ وما كان فيه من خروجٍ، وسفكِ دماءَ، وظُهورٍ للشيعةِ والفرقِ، وسيادةٍ للفتنِ...؛ وكلُّ ذلك أدَّى إلى كثرةِ دواعي الخطابةِ في ذلكَ العصرِ.

---

(١) يُنظر: الخطابة أصولها- تاريخها في أزهر عصورها عند العرب، صـ٢٣١-٢٣٣، بتصرُّفٍ.

(٢) يُنظر: فن الخطابة وإعداد الخطيب، صـ٢٤-٢٥، بتصرُّفٍ.

وقد بلغتِ الخطابةُ في هذا العصرِ شأنًا عظيمًا؛ وسببُ ذلك يرجعُ إلى عواملِ نهوضِ الخطابةِ في صدر الإسلام ، وهي وجود القرآنِ الكريمِ، والسُّنَّةِ النَّبويَّةِ المُطهَّرةِ، والحضارة، وغيرِ ذلك...، وعواملَ أخرى؛ كالمحادلاتِ التي ظهرتْ في ذلك العصرِ، حيثُ وُجِدَ في هذه الخطبِ الجدليَّةِ روحٌ عاليةٌ، ودقَّةٌ في التفكيرِ، وسلامةٌ في التعبيرِ[1].

إلى جانبِ ظهورِ خطباءَ من علماءِ الكلامِ، يعظونَ ويُدافعونَ عن مذاهبِهم في أصولِ الاعتقادِ، مثل الحسن البصريّ، وواصل بن عطاء.

كما كان الخلفاءُ في صدر الدولةِ الأمويةِ يَحثُّون على الخطابةِ، ويدعون إليها، ويعملونَ على ترويجِها[2].

وفي أواخرِ العصرِ الأموي ضعُفتِ الدَّواعِي إلى الخطابةِ؛ لقلَّةِ الخُرُوجِ على الخُلفاءِ عَلَنًا، والاتجاهِ إلى التَّدبيرِ السِّرِّيّ، وتبييتِ الأمور في جنحِ الظَّلامِ، ولأنَّ الخطبَ بين أيدي الخلفاءِ قد قلَّتْ؛ إذِ الوفودُ قد قلُّوا بعد أنْ قلَّ الخارِجُونَ، واستغنى العلماءُ عنِ استدناءِ القلوبِ – وذلك كان من دواعي القول والبيان–؛ ولهذا كلِّهِ ضعفتِ الخطابةُ في أواخر هذا العصرِ[3].

وقد نشطتِ الخطابةُ في العصرِ العباسيِّ الأولِ (١٣٢هـ - ٢٣٢هـ)، وظلَّ للخطابةِ الدينيَّةِ وما اتَّصل بها من وعظٍ ازدهارُها في هذا العصْرِ، وعلى نحوِ ما كان الخلفاءُ والوُلاةُ يشاركونَ فيها لِعصْرِ بني أمية؛ كانوا يشاركون فيها أيضا لهذا العهدِ[4].

---

(١) يُنظر: الخطابة أصولها- تاريخها في أزهر عصورها عند العرب، صـ٣٠٠- ٣٠٣، بتصرُّفٍ.

(٢) يُنظر: فن الخطابة وإعداد الخطيب، صـ٢٤-٢٥، بتصرُّفٍ.

(٣) يُنظر: الخطابة أصولها- تاريخها في أزهر عصورها عند العرب، صـ٣٠٥.

(٤) يُنظر: تاريخ الأدب العربيّ – العصر العباسي الأول، د/ شوقي ضيف، صـ٤٤٨، ٤٥١، دار المعارف، القاهرة، ط١٩، ٢٠٠٥م.

ومن أسبابِ قوَّتِها في صدر ذلك العصرِ- أيضا-؛ أنَّ الدولةَ العبَّاسيَّةَ أحيطتْ بنطاقٍ من الفتنِ والثوراتِ، والخروجِ على حُكَّامِها؛ فكانتِ الحاجةُ ماسَّةً إلى الخُطبِ الرَّائِعةِ، يُدافعُ الخُلفاءُ بها عن أنفُسِهم، ويدعونَ النَّاسَ إلى البقاءِ على تأييدِهِمْ، ومُقاومةِ خُصُومِهِمْ، والفتنُ دائمًا تُحرِّكُ الألسنة، وتدفعُها إلى القولِ[1].

وفي العصرِ العباسي الثاني(٢٣٢هـ-٦٥٦هـ)- وهو عصرُ ابنِ نُباتةَ الخطيبِ -؛ تعدَّدتِ الفِرقُ والمذاهبُ، وضعُفتِ الخطابةُ السياسيَّةُ، كما ضعُفتِ الخطابةُ الحَفْلِيَّةُ، فكلاهما أصبح شيئًا نادرًا، وضعُفتِ الخطابةُ الدِّينيَّةُ على ألْسنةِ الخُلفاءِ؛ لكنَّها ظلَّتْ مُزدهِرةً في المساجدِ، وفي خُطبِ الجُمَعِ والعِيدَيْنِ، وقد نشطتْ نشاطًا عظيمًا في المساجدِ؛ حيثُ كانتْ تُعقدُ حلقاتٌ للوُعَّاظِ والقُصَّاصِ، وكان النَّاسُ يتحلَّقونَ من حولِهِمْ فيما يُشبِهُ احتِفالاتِ الأعيادِ، وكان الخُطباءُ يستمِدُّونَ في وعظِهِم وقصصِهِم من القرآنِ الكريمِ والحديثِ النبويِّ، وقصصِ الأنبياءِ والمُرسَلينَ[2].

وقد انتقل ابنُ نُباتةَ إلى مدينةِ حلب، وهناك اشتهر خطيبًا في بلاطِ سيفِ الدولةِ الحمدانيِّ، وتبوَّأ مكانًا عليًّا بين الخُطباءِ، فكان خطيبًا مُكثرًا؛ لحاجةِ سيفِ الدولةِ إلى كثرةِ تحريضِ النَّاسِ على الجهادِ؛ لتجييشِ الجيوشِ للغزو في بلاد الرومِ، ولصدِّ الجيوشِ الروميَّةِ عنْ بلادِ الشَّامِ والعراقِ.

وخُطبُ ابنِ نُباتةَ قريبةُ المعاني ظاهرةُ المقاصدِ، واضحةٌ سهلةُ التَّركيبِ يستشعرُ السَّامِي منها خشيةً دينيَّةً صادقةً[3].

---

(١) يُنظر: الخطابة أصولها- تاريخها في أزهر عصورها عند العرب، صـ٣٣٩، بتصرُّفٍ.

(٢) يُنظر: تاريخ الأدب العربيّ - العصر العباسي الثَّاني، د/ شوقي ضيف، صـ٥٢٧، دار المعارف، القاهرة، ط١٢، ٢٠٠١م.

(٣) يُنظر: تاريخ الأدب العربي- الأعصر العباسية، عمر فروخ، ٢/ ٥٢٨، دار العلم للملايين- بيروت، ط٤، ١٤٠١هـ - ١٩٨٤م.

أمَّا موضوعاتُ تلك الخُطبِ؛ فتنوَّعت بين الخطبِ الدينيَّة، والاجتماعية، والسياسيَّةِ، وكلُّها يتصلُ بعضُها ببعضٍ، فشملتِ الوعظَ، والترغيبَ، والترهيبَ، والحثَّ على الجِهادِ، والتذكيرَ بتقوى الله، وبالموتِ، والتحذيرَ من عقابِهِ- تعالى-، والحثَّ على طلبِ رضوانِهِ بالعملِ الصالحِ، والزهدِ في الدنيا، والسرورِ بالآخرة.

وقد جُمعتْ خُطبُ ابنِ نُباتةَ في ديوانٍ، هو بحقٍّ روضةٌ أدبيَّةٌ، ومادَّةٌ ثريَّةٌ للخطيبِ، من حيثُ غزارةُ المُفرداتِ والتَّراكيبِ، وجزالةُ التَّعابيرِ، وحسنُ الاستعارةِ والتشبيهِ، مع الحفاظِ على قوَّةِ المعاني والمضامينِ(١).

ورتَّب ابنُ نُباتةَ خُطبَهُ على النحو الآتي:

خُطبِ المعادِ، ثُمَّ خطبِ المواقيتِ، ثُمَّ خُطبِ الجِهادِ، ثُمَّ الخُطبِ المُختصَرَةِ، ثُمَّ خطبِ الفُصُولِ، ثُمَّ الخُطبِ الثَّواني، ثُمَّ فُصُولٍ في الأدعيةِ، ثُمَّ لواحِقِ خُطبِ المواقيتِ(٢).

وقدْ شهدَ لهذِه الخطبِ بالجودةِ والإتقانِ كثيرٌ ممَّن ترجمَ لابنِ نُباتةَ الخطيبِ، ومَنْ تناولَ خُطبَهُ بالشَّرْحِ والتعليقِ(٣).

***

(١) ديوان خُطبِ ابن نُباتةَ، عبد الرحيم بن محمد بن نُباتةَ (ت ٣٧٤هـ)، تحقيق: ياسر محمد خير المقداد، صـ ٨، مقدمة المحقق، الوعي الإسلامي بالكويت، ط١، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م.

(٢) ديوان خُطبِ ابن نُباتةَ، تحقيق: ياسر محمد خير المقداد، صـ ١٢.

(٣) يُنظر: شرح ديوان خطب ابن نباتة، للشيخ العلامة طاهر بن صالح الجزائرى، قدم له واعتنى به أحمد فريد المزيدي، صـ ٥، مقدِّمة المحقِّق، دار الكتب العلمية ـ بيروت- لبنان، ط ١، ١٤٢٨هـ ـ٢٠٠٧م.

ثانيًا: التعريفُ بابنِ نُباتةَ الخطيبِ

عُرفَ بـ (ابنِ نُباتةَ) في الأدبِ العربيِّ ثلاثةُ رجالٍ؛ أولهم: ابنُ نُباتةَ الفارقيُّ الخطيبُ المتوفَّى سنةَ (٣٧٤هـ) -الذي عليهِ مدارُ البحثِ-، وثانيهم: عبدُ العزيزِ بنُ نُباتةَ السَّعديِّ، وهو شاعرٌ مجيدٌ معاصرٌ لابنِ نُباتةَ الخطيبِ، وله في سيفِ الدولةِ غُررُ القصائدِ، ونُخَبُ المدائحِ، وتُوفِّيَ ببغدادَ سنةَ (٤٠٥هـ)، وثالثُهُم: محمدٌ بنُ محمدٍ بنِ نُباتةَ المِصريِّ الشاعرِ صاحبِ "سرح العيون في شرحِ رسالةِ ابنِ زيدون"، وهو من ذريَّةِ ابنِ نُباتةَ الخطيبِ، تُوفِّيَ بالقاهرةِ سنةَ (٧٦٨هـ)[(١)].

وابنُ نُباتةَ الخطيبُ هو عبدُ الرحيمِ بنُ محمدٍ بنِ اسماعيلَ بنِ نُبَاتَةَ[(٢)]، الحُذَاقِيُّ (نسبةً إلى قبيلةِ بني حُذاقةَ، وحُذاقةُ بطنٌ من إيادٍ، وهو حُذاقةُ بنُ زهرِ بنِ إيادٍ بنِ نزارِ بنِ مَعَدّ)، الفارقيُّ (نسبةً إلى بلدِهِ مَيَّافارقين)، صاحبُ الديوانِ الفائقِ في الحمدِ والوعظِ[(٣)].

وكُنيتُهُ أبو يحيَى، وُلِد سنةَ خمسٍ وثلاثين وَثَلَاث مائَة، ولم تذكُرْ مصادرُ ترجمتِهِ شيئًا عنْ نشأتِهِ، ولا عن تعليمِهِ أو شُيوخِهِ أو تلاميذِهِ، وإنما ورد عنه أنه كانَ إمامًا في علومِ الأدبِ، ورُزِقَ السعادةَ في خُطبِهِ التي وقعَ الإجماعُ على أنَّهُ ما عُمِلَ

---

(١) النثر الفنّي في القرن الرابع، د/ زكي مبارك، ١٩٢/٢، دار الجيل – بيروت، د.ت، والموسوعة العربية، المجلد العشرون، صـ٤٣٠، دمشق، ٢٠٠٨م.

(٢) يُنظر: الأعلام: خير الدين الزركلي، ٣٤٧/٣، دار العلم للملايين، بيروت – لبنان، ط٧، ١٩٨٦م، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، للإمام شهاب الدين أبي الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد بن العماد العَكري الحنبلي، ٤/ ٣٩٧- ٣٩٨، تحقيق: محمود الأرناؤوط، وعبد القادر الأرناؤوط . ط١، دار ابن كثير، دمشق – بيروت، ١٤١٠هـ – ١٩٨٩م.

(٣) سِيَرُ أعلامِ النُّبلاءِ، للإمامِ شمسِ الدينِ محمد بن أحمد بن عُثمَّان الذهبيِّ المتوفَّى (٧٤٨هـ – ١٣٧٤م)، ١٦/ ٣٢١، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، وأكرم البوشي، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م، تاريخ الأدب العربي في الأعصر العباسية- الأدب المحدّث إلى آخرِ القرنِ الرابع الهجريّ (١٣٢- ٣٩٩هـ)، (٧٥٠- ١٠٠٨م)، تأليف: عمر فروخ، صـ٥٢٧، دار العلم للملايين، بيروت- لبنان، د.ت، وجمهرة أنساب العرب، لأبي محمد عليّ بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسيّ(٣٨٤- ٤٥٦هـ)، ٣٢٧، تحقيق وتعليق: عبد السلام محمد هارون، ط٥، دار المعارف- القاهرة، ١٩٨٢م.

مثلُها، وفيها دلالةٌ على غَزارَةِ عِلمِهِ، وجودةِ قريحَتِهِ، وكان خطيبَ حَلَبَ، وبها اجتمع بالمُتنبِّي في خِدمةِ سيفِ الدولةِ الحَمَدَانيِّ[1]، وقيلَ إنَّهُ سَمَّعَ عليهِ بعضَ ديوانِهِ، وكان سيفُ الدولةِ كثيرَ الغزواتِ؛ فلهذا أكثرَ الخطيبُ من خُطب الجهادِ ليحضَّ الناسَ عليهِ، ويحثَّهم على نُصرةِ سيفِ الدولةِ، وكان رجلًا صالحًا، وَلَمْ يُسْبَقِ الخطيبُ إلى مثلِ ديوانِهِ هذا، ولا يُلْحَقُ فيهِ -إلَّا أنْ يَشَاءَ اللهُ- ؛ لأنَّه كان فصيحًا بليغًا دَيِّنًا وَرِعًا[2].

وفـــــاتــــه :

وكانَتْ وفاتُهُ - رحمه الله- سنةَ أربعٍ وَسبعين وَثَلَاث مائَة، بـــ (ميَّا فارقين)، ودُفِنَ بها، وَعُمِّرَ دون الْأَرْبَعينَ [3].

---

(١) هو الأميرُ عليٌّ بنُ أبي الهيجاء عبد الله بن حمدان التَّغلبيّ، ولد سنة ٣٠٣ هـــ، في مدينة ميافارقين، أو مدينة الشهداء، وهي أشهر مدن ديار بكر، كان أبوهُ أميرًا على الموصل، وقدْ لُقِّبَ لفرطِ شجاعتِهِ بـــ (أبي الهيجاء)، ومنذ نعومة أظفار سيف الدولة توسم به أبوه ذكاءً حادًّا؛ ولهذا وضعه بين أيدي حكماء الموصل وعلمائها العظماء، الذين لقَّنُوهُ العلومَ والآدابَ التي كانت تُدرَّس من قِبَلِ العلماء حينذاك، عاش الأميرُ عليٌّ بنُ أبي الهيجاء وترعرع بين الموصل ونصيبين وميافارقين، مسقَطِ رأسِهِ، ثُمَّ يوليه أخوه إمرة نصيبين، فيظهر مقدرةً إداريَّةً عاليةً، وبعد عام ٣٣٣هـــ استقر القائدُ سيفُ الدولةِ الحمدانيِّ بمدينة حلب، حيثُ غادر ديارَ بكرٍ وميَّافارقين، وقاد جيشه، وسار إلى حلب، وكانت تراوده آمالٌ عظامٌ، فعمل على تحقيقِها بكلِّ ما أُوتي من إمكاناتٍ، وقدِ اشتُهر بجذب أُدباءِ العربيَّةِ وشعرائِها، إلى مدينةِ حلب، وعمِلَ على إعطاءِ الفئةِ الموهوبةِ منهم، وجعَلَ منهم وسيلةً تتحدَّثُ عن انتصاراتِهِ، وتُخلِّدُ ذِكراهُ، ...وقد واتَتْهُ المنيَّةُ يومَ الجمعةِ لخمسٍ بقينَ من رمضانَ، سنة ٣٥٦هـــ، رحمه الله تعالى. يُنظر: الكامل في التاريخ، لابن الأثير الجزريِّ المتوفَّى سنة ٦٣٠هـــ، ٧/ ٢٤،٢٥، دار الكتب العلمية- بيروت، ط١، ١٩٨٧م، القائد سيف الدولة الحمداني، د/ حمدان عبد المجيد الكبيسي، صـــ ٦٢، ٧٩ بتصرُّفٍ، وزارة الثقافة والإعلام – بغداد، ١٩٨٩م.

(٢) البداية والنهاية: للحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (٧٠١- ٧٧٤هـــ)، تحقيق: د/عبد الله بن عبد المحسن التركي، ١٥/ ٤٢٠، مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر، ط:١، ١٤١٩هـــ - ١٩٩٨م.

(٣) الوافي بالوفيات: صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي، ١٨/ ٣٨٨، باعتناء: أيمن فؤاد سيد، ط٢، ١٤١١هـــ - ١٩٩١م، دار صادر – بيروت، وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان: لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر ابن خلكان (٦٠٨- ٦٨١هـــ)، تحقيق: د/ إحسان عباس، ٣/ ١٥٦، دار صادر – بيروت، د.ت.

المبحثُ الأول
تحليل الخطبة محلَّ البحث تحليلا بلاغياً، من حيث ألفاظها وتراكيبها وصورها.

خُطبةٌ في ذِكْر المَوتِ والمَعادِ

قالَ ابْنُ نُبَاتةَ[1]:

"الْحَمْدُ لِلهِ السَّرِيعِ حِسَابُهُ، الْمَنِيعِ حِجَابُهُ، الْوَبِيلِ عِقَابُهُ، الْجَزِيلِ ثَوَابُهُ، الَّذِي جَلَّ عَنْ تَمْثِيلِ الْقِيَاسِ، وَعَظُمَ عَنْ إِدْرَاكِ الْحَوَاسِّ، وَتَعَالى عَنِ الْأَنْوَاعِ وَالْأَجْنَاسِ، وَعَمَّ بِفَضْلِهِ كَافَّةَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ، أَحْمَدُهُ وَالْحَمْدُ مِن نِّعَمِهِ، وَأَسْتَزِيدُهُ مِنْ فَضْلِهِ وَكَرَمِهِ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ شَهَادَةً لَا لَغْوَ فِي مَقَالِهَا، وَلَا انْفِصَالَ لِاتِّصَالِهَا، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، بَعَثَهُ بِأَنْوَرِ مَنَارٍ، وَأَشْهَرِ شِعَارٍ، وَأَكْثَرِ فَخَارٍ، مِنْ أَطْهَرِ بَيْتٍ فِي مُضَرَ بْنِ نَزَارٍ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ، وَعَلَى آلِهِ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ، وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا.

أَيُّهَا النَّاسُ: مَنْ أَسْوَأُ حَالًا مِمَّنِ اسْتَعْبَدَهُ هَوَاهُ؟، أَمْ مَنْ أَكْسَفُ بَالًا مِمَّنْ أَبْعَدَهُ مَالِكُهُ وَمَوْلَاهُ؟، أَمْ مَنْ أَخْسَرُ صَفْقَةً مِمَّنْ بَاعَ آخِرَتَهُ بِدُنْيَاهُ؟، أَمْ مَنْ أَكْبَرُ حَسْرَةً مِمَّنْ كَانَتِ النَّارُ مُنْقَلَبَهُ وَعُقْبَاهُ؟، فَمَا لِلْغَفْلَةِ قَدْ شَمِلَتْ قُلُوبَكُمْ؟!، وَمَا لِلْغَيْرَةِ قَدْ سَتَرَتْ عَنْكُمْ عُيُوبَكُمْ؟!، وَمَا لِلطَّمَعِ قَدْ صَعَّرَ عِنْدَكُمْ ذُنُوبَكُمْ؟!، وَمَا لِلْأَمَلِ قَدْ مَلَكَ شُبَّانَكُمْ وَشِيبَكُمْ؟!.

---

(١) ديوان خطب ابن نباتة، صـ ١٤٦.

يَا سُؤْرَ النَّوَائِبِ، وَيَا غَرَضَ الْمَصَائِبِ، وَيَا نَصْبَ الْوَقَائِعِ، وَيَا نَهْبَ الْفَجَائِعِ، أمَا تَرَوْنَ صَوَارِمَ الْمَوْتِ بَيْنَكُمْ لَامِعَةً!، وَقَوَارِعَهُ بِكُمْ وَاقِعَةً!، وَطَلَائِعَهُ عَلَىٰكُمْ طَالِعَةً!، وَفَجَائِعَهُ لِعُذْرِكُمْ قَاطِعَةً!، وَسِهَامَهُ فِيكُمْ نَافِذَةً!، وَأَحْكَامَهُ بِنَوَاصِيكُمْ آخِذَةً!.

فَحَتَّامَ، وَإِلَامَ، وَعَلَامَ التَّخَلُّفُ وَالْمُقَامُ؟!، أَتَطْمَعُونَ فِي الْبَقَاءِ الْأَبَدِّ؟!، كَلَّا وَالْوَاحِدِ الصَّمَدِ؛ إنَّ الْمَوْتَ لَبِالرَّصَدِ، لَا يُبْقِي مِنْكُمْ عَلَى أحَدٍ، فَكَأنْ دَارَتْ عَلَيْكُمْ دَوَائِرُهُ، وَدَهَمَتْكُمْ عَسَاكِرُهُ، وَكُشِفَتْ لَكُمْ سَرَائِرُهُ، وَنَزَلَ بِكُلِّ امْرِئٍ مِنْكُمْ مَا يُحَاذِرُهُ، فَسَدَّ مِنْكُمْ مَجَارِيَ الْأَنْفَاسِ، وَأَسْكَنَكُمْ ظُلَمَ الْأَرْمَاسِ، وَمَضَتِ الْحَيَاةُ، وَحَصَلَتِ التَّبِعَاتُ، وَتَرَادَفَتِ الْمُفْظِعَاتُ، وَتَضَاعَفَتِ الْحَسَرَاتُ، فَمَا أغْفَلَ مَنْ هَذِهِ سَبِيلُهُ عِنِ الاسْتِعْدَادِ، وَمَا أجْهَلَ مَنْ قَصَّرَ فِي الزَّادِ لِيَوْمِ الْمَعَادِ، فَخُذُوا - رَحِمَكُمُ اللهُ - مِنْ شَبَابٍ إنْ فَاتَ أَعْجَزَكُمْ لِحَاقُهُ، وَمِنْ مَشِيبٍ فِرَاقُ حَيَاتِكُمْ فِرَاقُهُ، وَبَادِرُوا وَالْقَوْلُ يُسْمَعُ، وَالْمَعْذِرَةُ تَنْفَعُ، وَفِي الْخَلَاصِ مَطْمَعٌ، وَفِي الْعُمُرِ مُسْتَمْتَعٌ، قَبْلَ أَنْ يُغْلَقَ الرَّهْنُ بِمَا فِيهِ، **قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ ﴾[سورة عبس: ٣٤ -٣٧]**، جَعَلَنَا اللهُ وَإِيَّاكُمْ مِمَّنْ آثَرَ الدَّارَ الأُخْرَى، وَاسْتَقْصَرَ عُمُرَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَأَحْسَنَ الاسْتِعْدَادَ لِلْمَعَادِ وَالرُّجْعَى.

إنَّ أَجْلَى الْمَوَاعِظِ لِدَرَنِ الْقُلُوبِ، وَأَمْحَى الإِنْذَارِ لِمُسَطِّرَاتِ الذُّنُوبِ؛ كَلَامُ عَلَّامِ الْغُيُوبِ:

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوَۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴿١٠٨﴾﴾[سورة الأنعام: ١٠٨]".

***

عَناصِرُ بِناءِ النَّصِّ:

هذا النَّصُّ مُكَوَّنٌ من أكثرَ مِنْ عشرينَ جملةً لتحقيقِ المطلوبِ؛ تنوَّعتْ بينَ الاسميَّةِ والفِعْليَّةِ، وأغلبُها جُملٌ مُطَوَّلةٌ، بدتْ إطالتُها تأكيدًا على ما تحمِلُهُ من معانٍ، وكُلُّ جُملةٍ من هذه الجُمَلِ تبعتْها قُيُودٌ، ميَّزتْهَا عنْ غيرِها، وزادت في تربيةِ فائدتِها، وكما نعلمُ أنَّ للقيودِ فائدةً جليلةً فِي التَّرْكِيبِ؛ فذِكْرُها يكونُ (لزيادةِ الفائدةِ، وتقويتِها لدى السامعِ؛ لما هو معروفٌ منْ أنَّ الحُكْمَ كُلَّمَا ازْدادتْ قُيودُهُ؛ ازْدادَ إيضاحًا وتَخْصِيصًا، فتكونُ فائدتُهُ أتمَّ وأكْملَ، ولا فرقَ في ذلك بينَ تقييدِ المُسْنَدِ إليهِ والمُسنَدِ، ولا بين التقييدِ بتابعٍ ومفعولٍ، ونحوِ ذلك)[1]، كما سيتَّضِحُ من التحليلِ بعدُ.

***

البناءُ الفنيُّ للخُطبةِ:

قسَّمَ ابنُ نُباتةَ خُطبتَهُ إلى مقدِّمةٍ، وعرضٍ، وخاتمةٍ.

أمَّا المُقدِّمةُ؛ فتشملُ الحمدَ للهِ – تعالى–، والشهادتيْنِ، والصلاةَ والسلامَ على رسولِ اللهِ (ﷺ).

وأمَّا العرضُ؛ فهو مضمونُ الخُطبةِ وموضُوعُها.

وأمَّا الخاتمةُ؛ فتشملُ الدُّعاءَ، والتضمينَ بآياتٍ من القرآنِ الكريمِ.

***

(١) علوم البلاغة البيان والمعاني والبديع، أحمد مصطفى المراغي، صـــ ١٦١، ط١، دار الآفاق العربية، القاهرة، ١٤٢٠هـــ، ٢٠٠٠م.

أوَّلا: المقدِّمةُ:

أ- البدءُ بالحمدِ: يقولُ ابنُ نُباتةَ:

"الْحَمْدُ لِلهِ السَّرِيعِ حِسَابُهُ، الْمَنِيعِ حِجَابُهُ، الْوَبِيلِ عِقَابُهُ، الْجَزِيلِ ثَوَابُهُ، الَّذِي جَلَّ عَنْ تَمْثِيلِ الْقِيَاسِ، وَعَظُمَ عَنْ إِدْرَاكِ الْحَوَاسِّ، وَتَعَالى عَنِ الْأَنْوَاعِ وَالْأَجْنَاسِ، وَعَمَّ بِفَضْلِهِ كَافَّةَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ".

وأوَّلُ ما يُطالِعُنا منْ بلاغةِ هذه الخُطبةِ هو حُسْنُ الابتداءِ، حيثُ افْتتحها ابنُ نُباتةَ بجملةِ (الْحَمْدُ لِلهِ) الَّتِي هيَّأ بها اللهُ -ﷻ- النفوسَ إلى التعرُّفِ عليه- سبحانه، وإفرادِهِ بالعبوديَّةِ، والاسْتعانةِ به أوَّلا، وهذه الجملةُ تحملُ من الكنوزِ والأسرارِ البلاغيَّةِ ما تزخرُ به السُّطُورُ؛ حيثُ إنَّها تُفيدُ القصرَ، عنْ طريقِ تعريفِ المُسنَدِ إليه بلامِ الجنسِ التي تُفيدُ اختصاصَ اللهِ - ﷻ- بالحمدِ، وقصرَهُ عليهِ وحدَهُ، وهذا القصرُ والتخصيصُ يدلُّ دلالةً واضحةً على (كمالِ الصفةِ في اللهِ - ﷻ-؛ لأنَّها تُطْلَقُ على مستحقِّ الكمالِ) [1].

ثُمَّ إنَّ فيها ما يتبعُ هذا القصرَ من إيجازٍ؛ إذِ المعنى: الحمدُ كلُّ الحمدِ للهِ، واختصاصُ كلِّ أجناسِ المحامدِ بالله - ﷻ- دونَ سواهُ.

وما حقَّقهُ الثُّبُوتُ والدَّوامُ الَّذِي دلَّ عليهِ اسميَّةُ الجملةِ، فالحمدُ ثابتٌ دائمٌ كائنٌ للهِ - ﷻ-، دونَ سواهُ.

وهذه الجملةُ (الْحَمْدُ لِلهِ) مُهيِّئةٌ لما بعدَها وهُوَ موضوعُ الخُطبةِ، ودالَّةٌ عليه، والبدءُ بها عاملٌ كبيرٌ من عواملِ جذبِ انتباهِ المتلقِّينَ، لما يأتِي بعدَ المُفتتَحِ.

---

(١) البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، عبد الرحمن حسن حبنَّكه الميداني، ٢/ ٤٥٦، الدار الشامية، بيروت- لبنان، ط١، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م.

ولما كانت هذه الجملةُ مُهَيِّئةً للنَّفْسِ إلى التَّعرُّفِ على اللهِ – ﷻ–، فقد أخذَ ابنُ نُباتةَ بعدها في تعدادِ صفاتٍ لله –ﷻ–، حيثُ قالَ: (الْحَمْدُ لِلَّهِ السَّرِيعِ حِسَابُهُ، الْمَنِيعِ حِجَابُهُ، الْوَبِيلِ عِقَابُهُ، الْجَزِيلِ ثَوَابُهُ، ...)، وهذه الصِّفاتُ تتلاءَمُ وموضوعَ الخُطبةِ، وهو ذِكرُ الموْتِ والمعادِ.

وقدِ اتَّحَدتْ في هيئتِها وتركيبِها؛ فهي صفاتٌ مُشَبَّهَةٌ، كُلٌّ مِنْها رفعَ فاعِلًا لهُ، واتَّصَلَ بالفاعلِ ضميرٌ عادَ على اسمِ الجلالةِ (في موضعِ المجرورِ) المُتعلِّقِ بالمسندِ (لِلَّهِ)، والوصفُ بالصِّفةِ المُشبَّهَةِ أبلغُ في تأكيدِ الصِّفةِ وإثباتِها.

والصفاتُ الأربعُ (السَّرِيعِ، الْمَنِيعِ، الْوَبِيلِ، الْجَزِيلِ) منْ بابِ قلبِ النَّعْتِ؛ إذْ أصلُها: (حِسابُهُ سريعٌ، وحِجَابُهُ منيعٌ، وعِقابُهُ وَبيلٌ، وثوابُهُ جَزِيلٌ)، ولكِنْ حينَ تكونُ الصِّفةُ تابعةً لِلْموصُوفِ، فإنَّهُ لا يدلُّ على كمالِ الصِّفةِ فِي الموصُوفِ، بخلافِ إضافةِ الصفةِ إلى الموصوفِ أو قلبِ النَّعتِ؛ ففيهِ كمالٌ وتمكُّنٌ لهذهِ الصفاتِ، وتأكيدِها في الموصوفِ –ﷻ–، فضلًا عن إفادتِها الإيجازَ في التعبيرِ؛ فقولُنا: اللهُ سريعُ الحسابِ، أوجزُ من قولِنا: اللهُ حسابُهُ سريعٌ؛ إذِ الأولى مفردٌ؛ لأنَّ المُضافَ والمُضافَ إليْهِ كالكلمةِ الواحِدةِ، والأُخرى جُملةٌ.

كما أنَّ في قلْبِ النَّعْتِ تركيزًا على النَّعْتِ نفسِهِ، وتأكيدًا على ثُبوتِ تلك الصفاتِ للَّهِ –ﷻ–، وتحقُّقِها.

وبِنْيةُ المطلعِ المسبوكةُ من تلكَ المفرداتِ: (السَّرِيعِ، الْمَنِيعِ، الْوَبِيلِ، الْجَزِيلِ، حِسَابُهُ، حِجَابُهُ، عِقَابُهُ، ثَوَابُهُ)، قدْ هيَّأَتْ خُيوطَ ارتباطِ المَطْلَعِ بسائرِ معاني الخُطْبةِ، التي تدُورُ حولَ التذكيرِ بالموتِ والمعادِ؛ فكلٌّ من الحسابِ والحِجابِ، والعقابِ والثوابِ مُرتبطٌ ارتباطًا وثيقًا بذكرِ الموتِ والمعادِ.

كما أنَّ كلًّا من هذه المفرداتِ قد تعلَّقَ بصفةٍ من صفاتِ اللهِ – ﷻ–، تستوجبُ على النفسِ الإقرارَ بحمدِ اللهِ، والاستعانةَ به – ﷻ–.

وفي اختيارِ تلكَ الصفاتِ المُشبَّهةِ لمُتعلَّقاتِها (مَوْصُوفِيها) دونَ غيرِها، تناسبٌ وتلاؤُمٌ؛ فحسابُ الله – ﷻ– وُصِفَ بكونِهِ سريعًا؛ "لأَنَّ حسابَهُ – ﷻ – أسرع من لمح البصر، لا يحتاج إلى عدٍّ، ولا إلى عقدٍ، ولا إلى إعمالِ فِكرٍ، كما يفعله الحساب؛ ولهذا قال – وقوله الحق–:﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [سورة الأنبياء:٤٧]، وقال رسول الله –**صلى الله عليه وسلم**–: "اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الكِتَابِ، سَرِيْعَ الْحِسَابِ، اهْزِمِ الْأَحْزَابَ، اللَّهُمَّ اهْزِمْهُمْ وزَلْزِلْـــهُمْ"[(١)].

فاللهُ – ﷻ– عالمٌ بما للعبادِ وعليهِمْ، فلا يحتاج إلى تذكُّرٍ وتأمُّلٍ، إذْ قدْ علِمَ ما للمُحاسَبِ وعليْه؛ لأنَّ الفائدةَ في الحسابِ علمُ حقيقتِهِ.

وقيل: سريعُ المُجازاةِ للعبادِ بأعمالِهِمْ، وقِيلَ: المعنى لا يَشْغَلُهُ شأنٌ عنْ شأْنٍ، فيُحاسِبُهُمْ في حالةٍ واحدةٍ، كما قال – وقوله الحق–:﴿**مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾**﴾ [سورة لقمان:٢٨][(٢)].

---

(١) متفق عليه، أخرجه البُخاريُّ في صحيحِهِ، كتاب الجهاد والسير، باب "كان النبي – صلى الله عليه وسلم– إذا لم يقاتل أول النهار أخَّر القتال حتى تزول الشمسُ"، برقم (٢٩٦٥). وكتاب الجهاد والسير، باب "لا تمنوا لقاء العدو"، برقم (٣٠٢٥). وكتاب المغازي، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب، برقم (٤١١٥) وكتاب الدعوات، باب الدعاء على المشركين، برقم(٦٣٩٢). وكتاب التوحيد، باب قول الله– ﷻ–: ﴿ **أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ** ﴾ [سورةالنساء: ١٦٦]، برقم (٧٤٨٩). وأخرجه مسلم في كتاب الجهاد والسير، باب "استحباب الدعاء بالنصر عند لقاء العدو"، برقم(١٧٤٢).

(٢) يُنظر: (الجامع لأحكام القرآن)، للإمام أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبيّ(ت ٦٧١هـــ)، تفسير سورة إبراهيم، ٥/ ٢٧٠، دار الفكر العربي – القاهرة، ط١، ١٤٤١هـــ – ٢٠١٩م.

وهذه الصفة (السَّرِيعِ حِسَابُهُ) قد بدأ بها الخطيب؛ لأنَّ فيها ترهيبًا للنفسِ منِ اقترافِ إثْمٍ، وتحْذِيرًا لها منِ ارتكابِ المَعاصِي، وحثًّا لها على المسارعة بالتوبةِ، والإسراعِ في التَّخلُّصِ من أهْواءِ الدُّنيا الغَرُورِ، والتعلُّقِ بالآخرة؛ فدرْءُ الْمَفاسدِ مُقدَّمٌ على جَلْبِ الْمصالِحِ، فلمَّا كانتِ الآمالُ زائدةً عنِ الآجالِ، تلْكُمُ الآمالُ التي تُمَنِّي النَّفْسَ، وتُرَغِّبُها في اقْتِرافِ الآثامِ، وتسْويفِ التَّوبةِ، والرُّكُونِ إلى متاعِ الدُّنْيا، والمَيْلِ إلى زهْرتِها، والتي تَحْمِلُ المُغترِّينَ بها على الظُّلْمِ والأَثَرةِ؛ قدَّم ابنُ نُباتَةَ منْ صفاتِ الله - ﷻ- أنَّهُ سريعُ الحسابِ؛ حتَّى يُنبِّهَ النَّفْسَ البشريَّةَ، ويُوقِظَها مِنْ غَفْلتِها، ويَرُدَّهَا عن التَّمادِي فِي غَيِّها رَدًّا جميلًا.

ويُلْحظُ أنَّهُ بدأَ بثلاثِ صفاتٍ ترهِيبيَّةٍ، ثُمَّ أتبعها برابعةٍ تَرْغيبيَّةٍ، فلوَّنَ في خِطابِهِ ونوَّعَ؛ وذلكَ قصدًا إلى إثارةِ كلٍّ من دافعَيِ الرغبةِ والرَّهبةِ في نُفُوسِ المتلقِّينَ؛ عملًا على إصلاحِ نفوسِهِم، وتهذيبِها.

ثُمَّ تلا هذه الصفةَ (السَّرِيعِ حِسَابُهُ) صفةُ المناعةِ مع الحجابِ (الْمَنِيعِ حِجَابُهُ)، فاللهُ -ﷻ- حجابُهُ قويٌّ شديدٌ في المَناعةِ، لا يُوصَلُ إليه، وهذا الوصفُ (الْمَنِيعِ حِجَابُهُ) يُقالُ في حقِّ كُلِّ عزيزٍ لا يُمكِنُ لأحدٍ أنْ يصِلَ إلَيْهِ إلا بإذْنِهِ، فالمِلكُ المنيعُ الحجابِ معناهُ أنَّ لهُ من الحُرَّاسِ ما يمنعُ النَّاسَ من الوصولِ إليهِ، والمقصودُ في حقِّ اللهِ - ﷻ- أنَّهُ غالبٌ لا يُقْهرُ، وأنَّ أحدًا لا يصلُ إلى منيعِ عرشِهِ-ﷻ- إلا بإذْنِهِ.

وهذه الصفة (الْمَنِيعِ حِجَابُهُ) لها علاقةٌ قويَّةٌ بموضوعِ هذه الخُطبةِ، وهو ذِكْرُ الموتِ والمَعادِ؛ حيثُ إنَّ ملكَ الموتِ يدخلُ على مَنْ جاءَ أجلُهُ؛ لأنَّهُ غيرُ منيعِ الحجابِ، وإنْ كانَ أعزَّ ملوكِ الأرضِ، بينما لا يُمكنُ أن يصلَ إلى اللهِ-ﷻ- أحدٌ؛ لأنَّهُ المنيعُ الحجابِ حقًّا.

وقدْ دلَّتْ دلالةُ المنْعِ بالحِجَابِ على قُدرتِهِ -ﷻ- وعظمتِهِ، فكانَ حسابُهُ سريعًا، يليقُ بجلالِهِ.

ثُمَّ تتلو صفة ترهيبيَّةٌ أخرى في حقِّ الله-ﷻ-، وهي (الْوَبِيل عِقَابُهُ) أي الشَّديدُ، -ﷻ-، ومقصودُها تحذيرُ النَّفْسِ من ارْتِكابِ المآثِمِ والشُّرُورِ.

ثُمَّ ختم بصفةٍ ترْغِيبيَّةٍ، وهي(الْجَزِيلِ ثَوَابُهُ)، وقد سارَ على نهجِ القرآنِ الكريمِ في بدئِهِ بالترهيبِ ﷻ- وختمِهِ بالتَّرغِيب، مثل قولِهِ - ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [سورة هود، ١٠٦- ١٠٨].

والبدءُ بالتَّرهيبِ أوَّلًا فيهِ إثارةٌ للنفسِ بتخويفِها منَ الاقترابِ إلى ما يضُرُّها، والختمُ بالترغيبِ بعدَهُ فيهِ جذبٌ للنفسِ وترغيبُها في الإقبالِ على ما ينفعُها.

وتتجلَّى بلاغةُ إيجازِ القِصَرِ في هذهِ الصفاتِ الأربعِ: (سَرِيعٌ حِسَابُهُ، مَنِيعٌ حِجَابُهُ، وَبِيلٌ عِقَابُهُ، جَزِيلٌ ثوابُهُ)؛ فهي موجزةٌ قصيرةٌ، لكنَّها تحملُ منَ المعاني والمتعلقاتِ عباراتٍ كثيرةً تذهبُ فيها النَّفسُ كلَّ مذهبٍ، واختيارُ التَّرَاكيبِ المُوجَزَةِ المُعَبِّرَةِ مِنْ سِماتِ الخُطْبَةِ البليغةِ المُؤثِّرةِ.

والمُتأمِّلُ في صياغةِ هذه الصِّفاتِ الأربعِ على زنةِ (فَعِيلٍ) (السَّرِيعِ، الْمَنِيعِ، الْوَبِيلِ، الْجَزِيلِ)، وما فيها من المدِّ بالياءِ؛ يجدُ تمثيلًا لتعزيزِ دخولِ الرَّهبةِ، وإلقائِها في قلبِ السامعِ بلا مُهْلةٍ، فحسابُ اللهِ سريعٌ، وحجابُهُ منيعٌ، وعقابُهُ وبيلٌ، والمدُّ بالياءِ في هذه الصفةِ (وبيلٌ)، وكذلك الكسرُ قبله فيهما تأكيدُ الإيذاءِ بالعقابِ، وشدّتِه إذا لمْ يمتثلِ الإنسانُ لله -ﷻ-.

أمَّا المدُّ في صفةِ التَّرغيبِ (الْجَزِيلِ ثوابُهُ)؛ ففيه تمثيلٌ للزيادةِ في العطاءِ، وزيادةِ مقامِ التَّرغيبِ.

وتواطُؤُ الفواصلِ (السَّرِيعِ، الْمَنِيعِ، الْوَبِيلِ، الْجَزِيلِ/ حِسَابُهُ، حِجَابُهُ، عِقَابُهُ، ثَوَابُهُ) من قبيلِ السَّجْعِ المُرَصَّعِ[1]، الذي أكْسبَ التَّرْكيبَ جرسًا مُوسِيقيًّا، وإيقاعًا صوتيًّا جذبَ الانتباهَ، وأصغى الآذانَ في بدايةِ الخُطبةِ، وذلك مطْلُوبٌ للمعنى في مقامِ التهيئةِ، والحثِّ على حمْدِ اللهِ -ﷻ-، وتعدادِ صفاتِهِ.

*****

ويستمرُّ ابنُ نُباتةَ في تعدادِ صفاتِ اللهِ -ﷻ-، فيقولُ:

(الَّذِي جَلَّ عَنْ تَمْثِيلِ الْقِيَاسِ، وَعَظُمَ عَنْ إِدْرَاكِ الْحَوَاسِّ، وَتَعَالى عَنِ الْأَنْوَاعِ وَالْأَجْنَاسِ، وَعَمَّ بِفَضْلِهِ كَافَّةَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ).

وقدِ اختلفتْ هيئةُ تركيبِ تلكَ الصفاتِ عنِ السابقةِ؛ حيثُ أتى بالصفةِ في هيئةِ الاسمِ الموصولِ (الذي) وصلتِهِ، وهُو منَ الأدواتِ التي "يُتوَصَّلُ بها إلى وصفِ الْمَعارِفِ بالجُمَلِ"[2]، وجعلهُ تابعًا لاسمِ الجلالةِ، داخلًا في تعدادِ صفاتِهِ المُهَيَّأ لها بالحمْدِ في بدايةِ الخُطبةِ، وصلتُهُ مبنيةٌ على الفعلِ الماضِي اللَّازمِ المُكْتفِي بمرْفُوعِهِ، والمُتعلِّقِ به جارٌّ ومَجْرُورٌ ومُضافٌ إليْه؛ لتربيةِ الفائدةِ، ثُمَّ عطفَ على هذا الفعلِ أربعةَ أفعالٍ مُتَّحِدةٍ معهُ في التركيبِ والتَّقْييدِ، وزادَ عليها الفعلُ الرابعُ بكونِهِ متعديًا، وكلُّ ذلك له دَلالتُهُ في التركيبِ كما سيتَّضِحُ.

---

(١) السجع: هو تواطؤ الفاصلتين من النثر على حرف واحد، ومنه المُرصَّعُ، وهو ما كان في إحدى القرينين من الألفاظ أو أكثره مثل ما يقابله من القرينة الأخرى في الوزن والتقفية. مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح، لابن يعقوب المغربي، ضمن شروح التلخيص، ٤/ ٤٤٧/ دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د.ت.

(٢) دلائل الإعجاز، للإمام عبد القاهر الجرجانيّ(ت٤٧١هـ)، صـ ٢٠٠.

وبناءُ هذهِ الصفاتِ على اسمِ الموصولِ وصلتِهِ؛ لتقريرِ تلك الصفاتِ، وكلٌّ منَ الأفعالِ (جَلَّ، عَظُمَ، تَعَالى، عَمَّ) تتناسبُ وتجتمعُ في معاني التَّنْزِيهِ، والجلالةِ، والْعَظَمةِ، والتَّعَالِي، وكلُّها صفاتٌ للهِ - ﷻ-، فهو- ﷻ- جليلٌ عنْ أنْ يُدْرَكَ بِمِثْلٍ، عظيمٌ عنْ أنْ يُقدَّرَ بالحواسِّ، مُنَزَّهٍ عن الضُّرُوبِ والأنواعِ والأشكالِ.

ولَّما كانَ حجابُهُ - ﷻ- مانعًا عنْ إدراكِهِ - كما في الحديث "عَنْ أَبِي مُوسَىٰ الأشعريِّ- ، قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ(ﷺ) بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ، فَقَالَ: "إنَّ اللهَ-ﷻ-لا يَنَامُ، وَلا يَنْبَغِي لَهُ أنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لأحْرَقَتْ سُبُحَاتِ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ"[1]، ولِمَا رُوِيَ من حديثِ أبي ذَرٍّ -<-، قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟، قَالَ: نُورٌ أَنَّى أراه؟!"[2]-؛ فحجابُهُ النُّورُ، فقد تنزَّهَ عن الإدراك بالحواس، كما جلَّ عنِ التمثيلِ والقياسِ، فهو - ﷻ- لَمْ يكُن لَّهُ كفوًا أحدٌ، مُنَزَّهٌ عنْ مماثلةِ الأجناسِ والأنواعِ[3]، التي يلزمُهَا الكثرةُ والتَّعدُّدُ، سواءٌ كانا مُتَّفقَيْنِ في الحقيقةِ كما في النَّوْعِ، أو مُخْتَلفَيْنِ فيها كما في الجِنْسِ.

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب في قوله (ﷺ): إنَّ الله لا ينام وفي قوله: "حجابه النور، لو كشفه لأحرق سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه"، حديث رقم ١٧٩.

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب في قوله (ﷺ): "نور أنى أراه"، وفي قوله: رأيت نورًا، حديث رقم ١٧٨.

(٣) عرَّفَ المناطِقةُ الجنسَ بأنَّهُ كليٌّ مقولٌ على كثيرين مُختلفينَ بالحقائقِ في جوابِ (ما هو؟)، كالحيوانِ، فإنَّهُ تمامُ الجزءِ المشتركِ بينَ الإنسانِ والفرسِ، والنوعَ بأنَّهُ كليٌّ مقولٌ على كثيرين مُتَّفقينَ بالحقائقِ في جوابِ (ما هو؟)،كالإنسانِ. تحرير القواعدِ المنطقيَّةِ، قطب الدين محمود بن محمد الرازي(ت ٧٦٦هـ)، صـ ٤٦، ٤٩، مصطفى البابي الحلبيّ، ط٢، ١٩٤٨م.

ثُمَّ ختمَ ابنُ نُباتةَ هذه الفقرةَ بقولِهِ: (وَعَمَّ بِفَضْلِهِ كَافَّةَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ)؛ لأنَّ مَنِ اتَّصفَ بالصِّفاتِ السابقةِ مُفتقِرٌ إليْهِ جميعُ العالَمينَ، كما قال- ﷻ-: **تَعَالَىٰ:﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾** [سورة فاطر: آية ١٥]، وخصَّ الجِنَّةَ والنَّاسَ؛ لِخصُوصِيَّةِ بَعثَةِ النَّبيِّ لهُما دونَ غيرِهِما.

ويُؤْخذُ على ابنِ نُباتةَ إضافتِهِ لفظَ (كَافَّةَ) إلى ما بعدهُ، إذِ الأصلُ أنَّهُ منصوبٌ على الحالِ ممَّا قبلَهُ، فلا يُضافُ، يقولُ الإمامُ النَّوويُّ (ت ٦٧٦هـ) : "هذا مذهبُ الكافَّةِ، وهو قولُ الْكافَّةِ، ويقُولُونَ: إنَّما هذا مذهبُ كافَّةِ العُلماءِ فيُضِيفون كافَّةَ، ومُرادُهُمْ بذلك الجَمِيعُ، ... وهذا غلطٌ عندَ أهلِ النَّحْوِ واللُّغةِ، فلا يجُوزُ استعمالُ كافَّة مُضافةً، ولا بالألفِ واللَّامِ، وَلا تُسْتَعْمَلُ إلَّا حالًا، فيُقالُ: هذا مذهبُ العُلماءِ كافَّةً، وقولُ الناسِ كافَّةً، فتُنْصَبُ كافَّةٌ على الحالِ، كما قال اللهُ – تعالى-: **قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً ﴿٢٠٨﴾﴾** [سورة البقرة: من الآية ٢٠٨]، وقال – تعالى-:**قَالَ تَعَالَىٰ:﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ﴾** [سورة التوبة: من الآية ٣٦] (١)، وقدْ أضافهُ ابنُ نُباتةَ إلى ما بعدَهُ؛ مراعاةً لفاصلةِ السَّجعِ.

ويستمرُّ في حمدِ اللهِ – ﷻ-، بتركيبٍ آخرَ مختلِفٍ في هيئتِهِ عمَّا سبقَهُ، فيقول:

"أَحْمَدُهُ وَالْحَمْدُ مِن نِّعَمِهِ، وَأَسْتَزِيدُهُ مِنْ فَضْلِهِ وَكَرَمِهِ"

وهُما جُملتانِ فِعليَّتانِ، موصُولٌ بينهما بالواوِ؛ لاتِّفاقِهِما في الخبريَّةِ لفظًا ومعنًى، ولاتِّحادِ المُناسبةِ بينهما، وهيئةُ تركيبِ الفعلِ فيهما واحدةٌ؛ إذْ هو فِعلٌ

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات، للإمام أبي زكريا مُحْيِي الدِّين بنِ شرفِ النوويِّ، ٤ /١١٦، بتصرُّفٍ، ط دار الكتب العلمية من نسخة مصورة من دار الطباعة المنيرية، د.ت .

مُضارعٌ مُسندٌ إلى ضميرِ المُتكلِّمِ، ومُتعدٍّ إلى ضميرِ الغائبِ العائدِ إلى اللهِ - ﷻ- المقصودِ بالحمدِ، وقد تقيَّدَ فعلُ الجُملةِ الأُولَى بالجملةِ الحاليَّةِ المسبوقةِ بواوِ الحالِ؛ لبيانِ الهيئةِ، وتقيَّدَ فعلُ الجُملةِ الأخْرى بالجارِّ والمجْرُورِ والإضافةِ والعطفِ؛ لتربيةِ الفائدةِ في كلٍّ.

والتَّعبيرُ بالمُضارعِ؛ لاسْتحضَارِ صُورةِ فعلِ الحَمْدِ المُتجدِّدِ حالًا بعدَ حالٍ، واستمرارِهِ، وفيهِ حثٌّ للمُخاطَبينَ كذلكَ على تجديدِ الحمدِ والاستمرارِ عليه، وهذا التجدُّدُ والتَّغْييرُ فِي الصُّورَةِ، وهيئةِ التَّرْكيبِ يُفِيدُ في تنبيهِ المُخاطَبينَ، وتَجْدِيدِ إيقَاظِهِمْ، فالخطيبُ البارعُ مَنْ يُلوِّنُ في خِطابِهِ، وَلا يَثْبُتُ على وَتِيرَةٍ واحدةٍ.

والجُملةُ الحاليَّةُ (**وَالْحَمْدُ مِن نِّعَمِهِ**) تدلُّ على أنَّ فعلَ الحمدِ ليسَ تفضُّلًا منَ الإنسانِ؛ بلْ هو مِن نِّعَمِ اللهِ - ﷻ- أنْ جعلنا نَحْمدُهُ، فهو مُسْتحِقٌّ الحمْدَ على حمدِهِ، وقد دَّخلتِ الواوُ على جُملةِ الحالِ؛ لأنَّها اسْمِيَّةٌ، وهيَ تُفِيدُ ثُبُوتَ كوْنِ الحمْدِ منَ اللهِ - تعالى-؛ لأنَّ اسْتِلْهامَ الحمْدِ نعمةٌ تسْتحِقُّ الْحَمْدَ، وهِي منْ قبيلِ قوْلِهِ-ﷻ-: **قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١١٨ ﴾** [سورة التوبة:آية ١١٨] ، فالله - ﷻ- محمودٌ على نعمةِ الحمدِ لهُ.

وقولُهُ: (**وَأَسْتَزِيدُهُ مِنْ فَضْلِهِ وَكَرَمِهِ**)؛ لأنَّ المُداومَةَ على الحمْدِ والشُّكْرِ تستوْجِبُ المَزيدَ، قال- ﷻ-: **ﭐ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ**[سورة إبراهيم: آية ٧].

وما التنويعُ في هيئةِ تراكيبِ هذهِ الجملِ في معنى الحمْدِ؛ إلَّا لِدلالةِ الحثِّ على حمْدِ اللهِ -ﷻ- على كلِّ حالٍ، وكلِّ هيئةٍ، وفي كلِّ زمانٍ، حمدًا كثيرًا مُسْتمِرًّا لا انقطاعَ لسحائِبِهِ.

*****

ب- الشَّهادتانِ: يقولُ ابنُ نُباتةَ:

"وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ شَهَادَةً لَا لَغْوَ فِي مَقَالِهَا، وَلَا انْفِصَالَ لِاتِّصَالِهَا، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ،

بَعَثَهُ بِأَنْوَرِ مَنَارٍ، وَأَشْهَرِ شِعَارٍ، وَأَكْثَرِ فَخَارٍ، مِنْ أَطْهَرِ بَيْتٍ فِي مُضَرَ بْنِ نَزَارٍ"

وقد بنى هذا التَّركيبَ على جُملتيْنِ رئيسَتيْنِ، مُتَّحدتيْنِ في التَّركيب، وقدْ أكَّدَ الفِعْلَ في الأُولَى بالمفعولِ المُطْلَقِ المُؤكِّدِ للفِعلِ والمُقرِّرِ لهُ (شَهَادَةً)، ثُمَّ وصفَ هذهِ الشهادةَ، وقيَّدَها بكوْنِها خالصةً، خاليةً منَ اللَّغْوِ والسَّقطِ، وأنَّها دائمةٌ مُتَّصِلةٌ، لا انْفِصَالَ لها.

وخصَّ الشهادةَ بهاتيْنِ الصفتيْنِ **(لَا لَغْوَ فِي مَقَالِهَا، وَلَا انْفِصَالَ لِاتِّصَالِهَا)**؛ لأنهما من لوازمها، ذلك لأن (**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)** تقْتضِي العقدَ والجزْمَ والشَّدَّ، وهي أساسُ العقيدةِ، وذروةُ سنامِ الإيمانِ، وذلك يُنافِي اللَّغوَ، وكما أنَّها تقتضِي اليقينَ؛ فإنَّ اليقينَ يقتضِي الدَّوامَ والاعتقادَ الجازمَ النَّاشِئَ عن دليلٍ، وذلك يُناسِبُهُ صفةُ **(وَلَا انْفِصَالَ لِاتِّصَالِهَا)**، وتتجلَّى بلاغةُ الطِّباقِ الَّذي أحدثَ علاقةً ضِدِّيَّةً بينَ **(انْفِصَالَ، اتِّصَالِهَا)**، أكَّدتْ هذا المعنى ووضَّحتْهُ.

ثُمَّ أكَّدَ الخطيبُ الشهادةَ للنبيِّ(ﷺ)، والإقْرارَ بعُبُودِيَّتِهِ لله -ﷻ-، ورسالَتَهُ، بقولِهِ: **(وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ)**، وبعدَ ذلكَ عدَّدَ لهُ مِنَ الْمناقِبِ والمآثرِ فِي ثلاثِ جُملٍ فِعلِيَّةٍ تعلَّقَتْ بضميرِهِ -صلى الله عليه وسلم-، وتقيَّدتْ بقيُودٍ زادتْ في فائدةِ التَّرْكيب، في قولِهِ: **(بَعَثَهُ بِأَنْوَرِ مَنَارٍ، وَأَشْهَرِ شِعَارٍ، وَأَكْثَرِ فَخَارٍ، مِنْ أَطْهَرِ بَيْتٍ فِي مُضَرَ بْنِ نَزَارٍ)**.

فالجملةُ الأُولَى ماضٍ فعلُها، ومتعلقٌ بمفعولٍ بهِ هو الضميرُ العائدُ إلى النَّبيّ(ﷺ) ، ثُمَّ تقيَّدَ هذا الفعلُ بجارٍّ ومَجْرُورٍ هو أفعلُ التَّفْضيلِ مُضافٌ إلى نَكِرةٍ، وقد عَطفَ على أفعلِ التفضيل هذا مثليْنِ لهُ مُتَّحِديْنِ معهُ في الهيئةِ والتركيب، لتتكوَّنَ ثلاثُ صفاتٍ مُتناسقةٍ معطوفٍ بعضُها على بعضٍ، دالَّةٍ على بُلُوغِها تمامَ الكمالِ والتَّحقُّقِ في حضرةِ رسول الله(ﷺ)، والقصدُ تفضيلُ النبيِّ(ﷺ) بهذه الصِّفاتِ.

وقولُهُ: (**وَأَشْهَرِ شِعَارٍ**) كنايةٌ عنْ (لا إلهَ إلَّا اللهُ)، وقولُهُ: (**بِأَنْوَرِ مَنَارٍ**) يدل عليه قوله -ﷻ-: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾[سورة المائدة: آية ١٥]، وقولُهُ: (**وَأَكْثَرِ فَخَارٍ**) يُشيرُ إلى ما جاءَ فِي الحديثِ الشَّرِيفِ: (أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ)[(١)].

وصِياغةُ هذهِ الصِّفاتِ الثلاثَةِ (**بِأَنْوَرِ مَنَارٍ، وَأَشْهَرِ شِعَارٍ، وَأَكْثَرِ فَخَارٍ**) في هيئةِ أفعلِ التفضيلِ؛ مناسبٌ لمقام الفَخْرِ والتَّعظيمِ في حقِّ النَّبيِّ (ﷺ)، وناسبَهُ أيْضًا خاصِّيَّةُ التَّحرُّكِ، والترجيعِ، والتَّكرارِ الصَّوتيِّ[(٢)] لحرفِ الرَّاءِ ستَّ مرَّاتٍ؛ مما يُثْري الإيقاعَ الدَّاخليَّ للتَّرْكيبِ، ويُؤكِّدُ اقترانَ هذهِ الصِّفاتِ بِبَعثةِ النبيِّ (ﷺ)، ومُلازمَتَها إيَّاها.

وقدِ ارْتفعَتْ نغَمةُ الإنْشادِ بالسَّجْعِ الْمُرَصَّعِ، واجتمَعَ معها اتِّسَاقٌ صَوْتِيٌّ ناشِئٌ عنْ وَحْدَةِ الجرْسِ والْوزْنِ في هذهِ الإضافاتِ الثلاثةِ (**بِأَنْوَرِ مَنَارٍ، وَأَشْهَرِ شِعَارٍ، وَأَكْثَرِ فَخَارٍ**)، وهي إضافاتُ تشريفٍ إلى تشريفٍ، وتعظيمٍ إلى تعظيمٍ، بفضلِ أفعلِ التَّفضيلِ الَّذي تتعلَّقُ فيه أجزاءُ جُملته، ويترابطُ بعضُها مع بعْضٍ، فَبَعثةُ النَّبيِّ (ﷺ) متعلِّقةٌ بهذهِ الأمورِ.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب تفضيل نبينا -صلى الله عليه وسلم- على جميع الخلائق، حديث رقم:(٢٢٧٨).

(٢) يُنظر: خصائص الحروف العربية ومعانيها دراسةٌ، حسن عبَّاس، ٦٤، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ١٩٩٨م.

وقولُ ابنِ نُباتةَ: (**مِنْ أَطْهَرِ بَيْتٍ فِي مُضَرَ بْنِ نَزَارٍ**[1]) يُشِيرُ إلى قولِ النَّبيِّ (ﷺ): (فَأَنَا خِيَارٌ مِنْ خِيَارٍ[2])، ويُقرِّرُ شرفَ نسبِهِ (ﷺ).

*****

جـــ ــ الصَّلاةُ والسَّلامُ على رسُولِ اللهِ (ﷺ): يقولُ ابنُ نُباتةَ:

(صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ، وَعَلَى آلِهِ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ، وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا)

مُخْتِمًا مُقَدِّمَةَ خُطبتِهِ بجُملةٍ دُعائيَّةٍ، بلفظِ الماضي يطلُبُ فيها من اللهِ ﷻ- الصَّلاةَ عَلَى النَّبيِّ (ﷺ)، صلاةً مُقيَّدةً بكونها آنَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ، وبكونها عَلَى آلِهِ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ، وكذلكَ التَّسْلِيمَ المُركَّبَ فِي هيئةِ الفِعلِ الماضِي المُؤكَّدِ بالمفعولِ المُطلقِ عن التقييدِ، الذي مُهِمَّتُهُ تقويةُ فِعلِهِ وَتقريرُهُ، وتوكيدُ معناهُ، فهو تَسليمٌ دائمٌ مُستمِرٌّ فِي كُلِّ زمانٍ، وكُلِّ مكانٍ.

---

(١) مُضرُ الجدُّ السابعَ عشرَ للنبيِّ محمدِ بنِ عبدِ اللهِ -صلى الله عليه وسلم-، وكانَ يُكنَّى بابنِهِ إلْياسَ، وسُمِّيَ مُضَرًا؛ لأنَّه كانَ يمضرُ القلوبَ أي يأخذُها لِحُسْنِهِ وجمالِهِ، ولم يرهُ أحدٌ إلَّا أحبَّه، وكان يُشاهَدُ في وجهِهِ نورُ النبيِّ محمدِ بنِ عبدِ اللهِ -صلى الله عليه وسلم-، وهو أوَّلُ من حدى لإبلٍ وكان من أحسنِ الناسِ صوتًا، وقبرُهُ بالروحاءِ، قُربَ المدينةِ على ساكِنِها أَفْضلُ الصلاةِ والسلامِ.

شفاءُ الغرامِ بأخبارِ البلدِ الحرامِ، لتقيِّ الدينِ الفاسي،١/ ٣٣، ط دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، د.ت.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي صلى الله عليه و سلم حديث رقم:(٢٢٧٦) بلفظ: "إنَّ اللهَ اصْطَفى كِنانَة من وَلَد إسماعيل، واصْطَفى قُريشًا من كِنانة، واصْطَفى بَني هاشم مِنْ قُرَيش، واصْطَفاني مِنْ بني هاشم"، وأما قوله: "فأنا خيار من خيار"، فرواه الطبراني في الكبير، (١٢/ رقم ١٣٦٥٠)، وفي الأوسط رقم (٦١٨٢) عن ابن عمر. قال الهيثَمِّي: "فيه حمَّاد بن واقد وهو ضعيف يُعتبر به". ينظر: المجمع (٨/ ٢١٥) قال ابن حجر: في الأمالي المطلقة: "هذا حديث حسن".

وهذهِ الجملةُ الخِتاميَّةُ تزْخرُ بكثيرٍ من التَّعابيرِ الجاهزةِ المُقتبَسةِ منَ القرآنِ الكريمِ، والَّتِي تعملُ على تقويةِ المعنى وتأكِيدِهِ، وتقريرِهِ في نفسِ المُتلقي، فقولُهُ: (آنَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ) مُقْتبَسٌ من قولِ اللهِ- ﷻ: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾ [سورة طه: آية١٣٠]، وقولُهُ: (وَعَلَى آلِهِ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ) مُقْتبَسٌ من قولِ اللهِ-ﷻ-: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾[سورة ص: آية٤٧]، وقولُهُ: ﴿وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ (وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا) مُقْتبَسٌ من قولِ اللهِ: ﴿ ﴾[سورة الأحزاب: آية٥٦].

*****

ثانيًا: العَرْضُ، وهو موضوعُ الخُطبةِ ومضمونُها:

ثُمَّ يأتي المَقصِدُ الَّذِي مَهَّدَ لهُ ابنُ نُباتةَ فِي المَطلعِ، وهُو التَّذْكيرُ بالمَوْتِ والمَعَادِ، فيَلفِتُ الانتباهَ إليهِ بالأُسْلوبِ التَّذكيريِّ وهُوَ النِّداءُ، فيُنادِي النَّاسَ، قائلًا:

(أَيُّهَا النَّاسُ)، وهذه اللفظةُ (النَّاسُ) مُشتقَّةٌ مِنَ النَّوْسِ، وأصلُهُ تذبْذُبُ الشَّيءِ، وتحرُّكُهُ، واضطِرابُهُ[1]، فالنَّاسُ يتحرَّكُونَ في حياتِهِمْ حركةً غيرَ مُنْضَبطَةٍ، بخِلافِ النِّداءِ بـــ (أيُّهَا المُؤمنون)؛ فالنِّداءُ بالإيمانِ يأتِي بعدَ ضَبْطِهِمْ حركتَهُمْ، وقد ناسبَ استخدامُ هذهِ اللفظةِ هُنا، حيثُ أتتْ مُطابقةً لِمُقتضيَاتِ أحوالِ المُخاطَبينَ المُضْطربينَ الْغافِلينَ عنِ المَوْتِ وَالْمَعادِ، فوُجِّهَ إليْهِمُ النِّداءُ تنْبيهًا لهُمْ، وإيقاظًا مِن غفْلتِهِمْ.

---

(١) لسان العرب، مادة (نوس).

ثُمَّ يُتبعُ النِّداءَ بأسلوبِ استفهامٍ، يَخْرُجُ منْ معناهُ إلى التَّوبيخِ والتَّقْريرِ، بالرُّجُوعِ إلى النَّفْسِ الَّتِي اسْتَعْبَدَهَا هواها، وباعتْ آخِرَتَها بِدُنْياهَا، وشملتْها الْغفلةُ، وسترتْ عُيُوبَها الغَيْرةُ، وصغَّرَ ذُنوبَهَا الطَّمَعُ، وملكَ عليْها الأملُ شَيْبَهَا وشبابَها؛ استفهاماتٌ متواليةٌ معطوفٌ بعضُها على بعضٍ بـــ (أَمْ) الَّتِي تُفيدُ الإضْرَابَ؛ بالانتقالِ منْ توبيخٍ وتقريعٍ إلى أشدَّ منهُ وأشنعَ، فقال:

"مَنْ أَسْوَأُ حَالًا مِمَّنِ اسْتَعْبَدَهُ هَوَاهُ؟،
أَمْ مَنْ أَكْسَفُ بَالًا مِمَّنْ أَبْعَدَهُ مَالِكُهُ وَمَوْلَاهُ؟،
أَمْ مَنْ أَخْسَرُ صَفْقَةً مِمَّنْ بَاعَ آخِرَتَهُ بِدُنْيَاهُ؟،
أَمْ مَنْ أَكْبَرُ حَسْرَةً مِمَّنْ كَانَتِ النَّارُ مُنْقَلَبَهُ وَعُقْبَاهُ؟"

أرْبعُ جُملٍ اسْتِفْهامِيَّةٍ اتَّحدتْ هيئةُ ترْكِيبِها وتشابَهَتْ؛ وجاءتْ معانيها تعبِّرُ عن موضُوعِ الخُطبةِ، حيثُ إنَّ مَنْ غَفَلَ عنِ المَوْتِ قدْ تَحقَّقتْ فيهِ هذهِ الصِّفَاتُ وهي بيانٌ لأحْوالِ النَّاسِ الَّتِي يَعيشُونَها، وقدْ بُنيتْ الجُملةُ الاسْتفهاميَّةُ على اسمِ الاسْتفهامِ (مَنْ)، والمُرادُ مِنهُ التَّقْريرُ المشوبُ بكلٍّ من التَّوْبيخِ والتَّقْريعِ والتَّعجُّبِ، وخبرُهُ أفْعَلُ تَفْضيلٍ، ثُمَّ تَمْييزُهُ، وتعلَّقَ بِأفعلِ التفضيلِ هذا جارٌّ ومجرُورٌ، والمجرورُ اسمُ موصُولٍ لتقريرِ جملةِ الصلةِ.

(أَسْوَأُ حَالًا) (أَكْسَفُ[1] بَالًا) (أَخْسَرُ صَفْقَةً) (أَكْبَرُ حَسْرَةً).

فسُوءُ الحالِ، وكَسْفُ البَالِ، وخُسَارةُ الصَّفْقَةِ، وكِبَرُ الحَسْرةِ كُلُّها أُمُورٌ اجتمعتْ في التَّفاضُلِ والزيادةِ، كنتيجةٍ لمنِ اقترفَ هذهِ الأفعالَ:

وفي قولِهِ: **(اسْتَعْبَدَهُ هَوَاهُ ، أَبْعَدَهُ مَالِكُهُ وَمَوْلَاهُ، بَاعَ آخِرَتَهُ بِدُنْيَاهُ، كَانَتِ النَّارُ مُنْقَلَبَهُ وَعُقْبَاهُ)** نَجدُ فُروقًا جليلةً في المعنى، فاستِعْبادُ الْهوَى داعٍ إلى إبْعادِ الإنسانِ عن مالِكِهِ ومولاهُ، وفرقٌ بين استِعْبادِ الهوى لِلإنسانِ بسببِ نفسِهِ وهواهُ، واسْتِعْبادِ الإنسانِ نفسَهُ لمولاهُ، فلا مُقارنةَ بيْنَ عِزِّ العُبُودِيَّةِ وذُلِّ الهوى.

---

(١) كَسَفَ الرَّجُلُ إذا نَكَّسَ طَرْفَهُ، وكَسَفَتْ حالُهُ ساءتْ. لسان العرب، مادة (كَسفَ).

وبين (اسْتَعْبَدَهُ، أبْعَدَهُ) مُطابقةٌ تُظهِرُ صَغَارَ مَنِ اتَّبعَ هواهُ، مُقارنةً بمنِ اسْتعْبدَ نفسَهُ لمولاهُ فِي عِزٍّ وَرَاحةٍ.

واسْتِخْدامُ (أَمْ) للإضْرابِ فيهِ تضْعِيفُ صُورةِ الْخِزْيِ، و(اسْتَعْبَدَهُ هَوَاهُ) مجازٌ مُرْسَلٌ لِعلاقةِ السَّببيَّةِ، فاتِّباعُ الْهوَى مُسبَّبٌ عنْ فسادِ عقلِ الإنسانِ، ففسادُ العقلِ إذنْ هو سببُ الاستِعْبادِ للهوى، فناسبَ ذلك الاستفهامُ التَّقْرِيرِيُّ المَشُوبُ بالتَّوْبيخِ سُوءَ الحالِ.

وقولُهُ: (أخْسَرُ صَفْقَةً) اسْتِعارةٌ تمثِيليَّةٌ لِتعزيزِ حالِ المُشبَّهِ؛ فلا يُوجَدُ خَسارَةٌ تُضاهِي خَسارةَ بيْعِ الدُّنيا بالآخرةِ، فالمُشبَّهُ به حالُ مَنْ عقدَ صفقةً، وباعَ بَيْعًا بَخْسًا بأغْلَى مَا يَمْلِكُ؛ بحالِ مَنْ باعَ الدُّنْيَا بالآخرةِ، فانْطلقتْ صُورةُ الاسْتِعارةِ تَنْقُلُ حالَ المُشبَّهِ في صُورةِ المُشبَّهِ بهِ القريبِ، حيثُ إنَّ إنْكارَ صُورَتِهِ أقْربُ إلى النَّفْسِ منْ إنْكارِ صُورةِ المُشبَّهِ، ومَنْ بَاعَ الآخرةَ بالدُّنْيَا فَلا أكبرُ خَسَارةً مِنْهُ. ولما كانتِ الحسرةُ تابعةً لسُوءِ الحالِ، وكَسْفِ البالِ، وخَسارةِ الصَّفقةِ؛ فقدِ اخْتتمَ الاسْتِفهامَ بقوله: (أكْبَرُ حَسْرَةً)؛ تقريرًا لكلِّ مَا سبقَ.

وتواطُؤُ الفواصلِ على رويٍّ واحدٍ في كلٍّ من (**أسْوَأُ حَالًا**) (**أكْسَفُ بَالًا**) (**أخْسَرُ صَفْقَةً**) (**أكْبَرُ حَسْرَةً**)، وكذلك في كلٍّ من (**اسْتَعْبَدَهُ هَوَاهُ ، أبْعَدَهُ مَالِكُهُ وَمَوْلَاهُ، بَاعَ آخِرَتَهُ بِدُنْيَاهُ، كَانَتِ النَّارُ مُنْقَلَبَهُ وَعُقْبَاهُ**) بين سجْعٍ مُرَصَّعٍ ومُطرَّفٍ؛ قد دمجَ هذه الصفات، ووَحَّد بينها في المفاضلة في تلك الأمورِ القبيحَةِ، الَّتِي يقترفُها مَنْ غَفلَ عنِ الآخرةِ والمَوْتِ، والغرضُ حثُّ المُتلقِّينَ، وإرشادُهُمْ إلى الابتِعادِ عنْ تِلكَ المُهْلِكاتِ، واختِيارِ سبيلِ النَّجاةِ.

ثُمَّ التفتَ ابْنُ نُباتةَ عن حالِ الإنْسانِ المُفتَرَضِ فيهِ الْعَقْلُ، إلى الاسْتِفْهامِ عنْ أَسبابِ فِتْنتِهِ، وبُعْدِهِ عنْ مَالِكِهِ، فأخذَ يقُولُ:

"فَمَا لِلْغَفْلَةِ قَدْ شَمِلَتْ قُلُوبَكُمْ؟!،
وَمَا لِلْغَيْرَةِ قَدْ سَتَرَتْ عَنْكُمْ عُيُوبَكُمْ؟!،
وَمَا لِلطَّمَعِ قَدْ صَغَّرَ عِنْدَكُمْ ذُنُوبَكُمْ؟!،
وَمَا لِلْأَمَلِ قَدْ مَلَكَ شُبَّانَكُمْ وَشِيَبَكُمْ؟!."

وهذه اسْتِفْهامَاتٌ أخْرَى خَرجتْ منْ معانيها الحقيقيَّةِ إلى معنًى مجازيٍّ هو التعجُّبُ والتَّوْبيخُ، وقدِ اتَّحدتْ هيئةُ تركيبِ هذهِ الجُملِ الاستفهاميَّةِ؛ لأنَّها مُشْتَركةٌ معًا فِي سُوءِ الْعاقِبةِ الَّتِي ألَمَّتْ بِمَنْ غفلَ عنِ الْموْتِ والمَعادِ، وانْغمسَ فِي شَهَوَاتِ الدُّنْيا.

أمَّا العَلاقةُ الإسْنادِيَّةُ في تلكَ الجُملِ الاسْتِفهاميَّةِ؛ فتركَّبتْ هيئتُها مِنْ فِعلٍ ماضٍ، مُقيَّدٍ، مُؤكَّدٍ، مُسْنَدٍ إلى ضَميرٍ مُسْتترٍ عائدٍ على مُتعلِّقٍ بالفِعْلِ، ومتعلِّقٍ بمفعولٍ به مُضافٍ إلى ضميرِ المُخاطبينَ، وعلاقةُ التقييدِ هي الجارُّ والمَجرُورُ، وعلاقةُ التَّأْكِيدِ بحرفِ التَّحْقِيقِ (قد)، فقد اشتركتْ في هذهِ الجُمَلِ الاستِفهاميَّةِ الأرْبعِ علاقاتٌ ليْستْ أساسيَّةَ بُنِيَتْ على العلاقةِ الأساسيَّةِ الَّتِي هيَ علاقةُ الإسْنادِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ هذهِ الأفعالَ قدْ تشابكتْ وتشاركتْ واتَّحدَتْ في الدَّلالةِ على غفْلةِ النَّاسِ عن الآخِرةِ، ونِسيانِهِمُ الموتَ والمعادَ.

وقدْ كانَ الاستفهامُ وتَكرارُهُ وسيلةً مُثلَى لاسْتِفْزَازِ المُخاطَبِ وتذكيرِهِ، فَكثرةُ الاسْتِفهامَاتِ المُتتاليَةِ، ولا سيَّما أنَّها مَشُوبَةٌ بالإنْكارِ والتَّوْبيخِ مع تقريرِ الْحالِ؛ تُثِيرُ في النَّفسِ شُعُورًا بالضّيقِ، فاسْتغلَّهُ الخَطِيبُ بذكاءٍ في استنْفارِ حالِ المُخَاطَبِ تِجاهَ نفسِهِ، فهُوَ لا يرْفُضُ الاسْتِفْهامَ، بل يرْفُضُ جوابَهُ بتقريرِهِ عنْ حالِهِ وهُو ما يُرِيدُهُ الخطيبُ مِنْ حدِيثِهِ إلى المُتلقِّينَ، فـــ "الاستفهامُ لونٌ مِنْ ألْوانِ التَّعْبيرِ،

ينقلُ المشاعرَ، وأعمقَ الأحاسيسِ، ويُبثُّ أخفى الخواطرِ والهواجسِ؛ باعثًا في نفس المُتلقِّي شتَّى الإيحاءاتِ المتوهِّجةِ المُتداخلةِ، فتحسُّ نبضَ القلوبِ في نبضِ الكلماتِ وحرارةِ الانفعالاتِ في التَّعبيراتِ، وهو أسلوبٌ لا يعتمدُ على المنهجِ العقليِّ المُجرَّدِ، بل يغلِبُ عليهِ إثارةُ العواطِفِ، وشحنِ الوجدانِ"[1].

وإسنادُ كلٍّ منَ (**شَمِلَتْ، سَتَرَتْ، صَغَّرَ، مَلَكَ**) إلى كُلٍّ مِن (**لِلْغَفْلَةِ، لِلْغَيْرَةِ، لِلطَّمَعِ، لِلْأَمَلِ**) على التَّرتيبِ مجازٌ عقليٌّ؛ لعلاقةِ السَّببيَّةِ في الإسْنادِ، فكلٌّ منَ الغفلةِ والغَيْرةِ والطَّمعِ والأملِ سببٌ في تعْميةِ القلوبِ، وسَتْرِ العُيُوبِ، وتصْغيرِ الذُّنوبِ في الأعيُنِ؛ فتزيدُ النَّفسُ عصيانًا، وكذلكَ الأملُ سببٌ في إغْواءِ الشبابِ والشِّيبة، وتحقَّقَ هذا الإسنادُ السَّببيُّ، وتأكَّدَ عن طريقِ (قد) وبالتَّعْبيرِ بصيغةِ الماضي.

وجمْعُ كُلٍّ مِن (**قُلُوبَكُمْ، عُيُوبَكُمْ، ذُنُوبَكُمْ، شُبَّانَكُمْ، وَشِيَبَكُمْ**) يدلُّ دلالةً واضِحةً على الكثرةِ الكاثِرةِ من القلوبِ الغافلةِ، والعيُوبِ المستورةِ بالغيرةِ، والذُنوبِ المُصغَّرةِ بالطَّمعِ، والشبابِ والشَّيبةِ المُغَيَّبَيْنِ بالأملِ، وإضافةُ كلِّ هذه المُسبِّباتِ إلى ضمير الجمعِ للمُخاطَبينَ؛ تنبيهًا لهُم على تحمُّلِ كلِّ فردٍ مسؤوليَّتَهُ، وإقرارًا لهُمْ على أفعالِهِمْ تلك الَّتي تبعثُ في النَّفسِ ازدراءً وإنكارًا، وزادَها إنكارًا السَّجعُ المتوازي بين الجملِ الأربعةِ.

وتتجلَّى بلاغةُ الطِّباقِ بين (**شُبَّانَكُمْ، وَشِيَبَكُمْ**)؛ والغرضُ منهُ الجمْعُ بينَ فِئاتِ الْأَعْمارِ تحْتَ مِلْكِ الأملِ.

وبعدَ أنْ وجَّه الخطِيبُ إلى جُمْهُورِهِ اسْتِفهاماتٍ عِدَّةٍ، تُقرِّرُ غفلَتَهُم، وتُوبِّخُهُمْ على هذا الصَّنيعِ؛ اتَّجهَ ثانيةً إليْهِم بالنِّداءِ الَّذي امْتزجَ بالتَّصْويرِ

---

(١) الأساليب الإنشائيَّة وأسرارُها البلاغيَّةُ في القرآنِ الكريمِ، د/ صباح عبيد دراز، صـ ١٠٧، ط١، مطبعة الأمانة- القاهرة، ١٩٨٦م.

الاسْتِعاريِّ، فقالَ: "**يَا سُؤْرَ النَّوَائِبِ، وَيَا غَرَضَ الْمَصَائِبِ، وَيَا نَصْبَ الْوَقَائِعِ، وَيَا نَهْبَ الْفَجَائِعِ**[1]".

وهذا تصْويرٌ دقيقٌ بَليغٌ عنْ طريقِ الاسْتِعارةِ التَّصْريحيَّةِ الأصْليَّةِ في الاسمِ (**سُؤْرَ**)، أي باقي النوائب، فالنَّوائِب أصْلًا ليسَ لهؤلاءِ المُخاطَبينَ أيُّ اعْتِبارٍ أمامَها، ففي التَّصويرِ بالاستعارةِ تحْقِيرٌ حِسِّيٌّ بالِغٌ؛ حيْثُ شبَّهَ تدنِّي قِيمةِ المُخاطَبينَ بالسُّؤْرِ، وهو بقيَّةُ الشَّيْءِ، كأنَّ النَّوائِبَ أكلتْهُمْ، وترَكتْ منهُمْ بقايا يزْدَريها النَّاظِرُ إليْها، والْجامِعُ الْخِسَّةُ والْحقَارةُ في كُلٍّ، والنِّداءُ هُنا للتَّحقِيرِ مِنْ شأنِ المُخاطبينَ.

وَيتَضاعَفُ التَّصْويرُ في قوْلِهِ: (**وَيَا نَصْبَ الْوَقَائِعِ، وَيَا نَهْبَ الْفَجَائِعِ**)، حيثُ يُشبِّهُهُمْ بالأسْرَى، أيْ غنيمةُ الوقائعِ كالأسْرَى لا يعِيشُونَ أحْرارًا، فهُمْ خدمٌ للدُّنْيا الَّتي تأسِرُهُمْ، ويُشبِّهُهُمْ كذلكَ بنهْبِ الفجائعِ، فالفجائِعُ تنْهَبُهُمْ، وتُقطِّعُ منهُمْ مِنْ هُنا وهُناكَ، وتسْرِقُ أنْفُسَهُمْ عنْ مَهَمَّاتِ الأُمُورِ، وكلُّ ذلكَ يُصوِّرُهُمْ بأنَّهُمْ قومٌ لا حولَ لَهُمْ ولا قُوَّةَ، تتكاثرُ عليهِمُ المصائِبُ مِنْ كُلِّ ناحيةٍ؛ بسببِ بُعْدِهِمْ عن طريقِ النَّجاةِ، وغفْلتِهِمْ عنِ الموتِ، وبذلكَ يُصغِّرُ الخطيبُ مِنْ شأْنِ هؤلاءِ المُخاطَبينَ أمامَ أنفُسِهِمْ، فلا تأخُذُهُمْ حميَّةٌ للتَّفاخُرِ بنفُوسِهِمْ.

ثُمَّ يلفِتُ انتباهَهُم مَرَّةً أُخْرَى بعدَ أنْ قرعَ أسْماعَهُمْ بتلْكَ الصِّفَاتِ التَّصْوِيريَّةِ، الَّتِي زادتْ في تقْريعِهِمْ وتوْبيخِهِمْ؛ مُنْتقِلًا بطريقِ الْغَيْبَةِ إلَى الخِطَابِ المُباشِرِ، بالاسْتِفهامِ الَّذِي خرجَ إلى معْنَى التَّقْريرِ والتَّوْبيخِ على حالِهِمْ، والتَّذْكِيرِ لَهُمْ بِإحَاطَةِ الْمَوْتِ بِهِم مِّنْ كُلِّ جَانِبٍ؛ فيقولُ:

---

(١) **السُّؤْرُ**: بقيَّةُ الشَّيْءِ، ويُستعمَلُ في الطَّعامِ والشَّرابِ وغيرِهِما، وجمعُهُ أسْآرٌ، **والغَرَضُ**: الهدفُ الَّذي يُنْصَبُ، فيُرْمَى فيهِ، **والنَّصْبُ** والنُّصُبُ: العَلَمُ المَرْفُوعُ، والنَّصْبُ الغايةُ، **والنَّهْبُ**: ما انْتُهِبَ، وانْتَهبَ الشَّيْءَ: استولى عليه، **والقوارع**: جمعُ قارِعةٍ وهي النَّازِلةُ الشَّديدةُ، **والفجائِعُ**:جمعُ فَجِيعةٍ، وهي الرَّزِيَّةُ المُوجِعةُ بما يَكْرُمُ. لسان العرب: (سأر، غرض، نصب، نهب، قرع، فجع).

(أَمَا تَرَوْنَ صَوَارِمَ الْمَوْتِ بَيْنَكُمْ لَامِعَةً!، وَقَوَارِعَهُ بِكُمْ وَاقِعَةً!، وَطَلَائِعَهُ عَلَىٰكُمْ طَالِعَةً!، وَفَجَائِعَهُ لِعُذْرِكُمْ قَاطِعَةً!، وَسِهَامَهُ فِيكُمْ نَافِذَةً!، وَأَحْكَامَهُ بِنَوَاصِيكُمْ آخِذَةً!)

وقدْ بُنيتْ هيئةُ تركيبِ الاسْتِفهامِ هُنا على حرْفِ الاسْتفهامِ الهمزةِ، والجملةِ الفعليَّةِ المُضارِعِ فِعْلُها، والمُتَّصِلِ بواوِ الْجماعةِ، وهو فِعْلُ الرُّؤْيةِ المُتعدِّي إلى مفعولَيْنِ؛ عُطِفَ علَى الأوَّل منهُما خمسةُ مفاعيلَ مُتَّحدةٍ معهُ فِي هيئتِهِ وترْكِيبِهِ وتقْيِيدِهِ، حيثُ إنَّهُ اسْمٌ ظاهِرٌ، مُضَافٌ إلى مُتحدَّثٍ عنهُ، وهُوَ الموْتُ، ومتعلِّقٌ بجارٍّ ومجْرورٍ مُضافٍ إلى ضَميرِ المُخاطَبينَ، ثُمَّ الْمفْعُولُ الثَّانِي لفعلِ الرُّؤْيةِ، وما كثرةُ تلكَ القُيودِ، إلَّا دلالةٌ واضحةٌ على تفوُّقِ ابنِ نُباتةَ فِي استخدامِ هذه الأدواتِ التي أخرجَ معانيهِ فِي قالَبِها، (فاللغةُ فِي إفرادِها وتراكيبِها مُثْقَلَةٌ بالضَّوابطِ والقُيودِ، وبِمِقْدارِ دقَّتِها، وثَرائِها، وتفوُّقِ أصْحابِها تكُونُ هذهِ الضَّوابطُ والقُيُودُ؛ لأنَّ دِقَّةَ الاسْتِعمالِ، ودِقَّةَ الدَّلالةِ لا مرْجِعَ لهُ إلَّا كثْرةُ الضَّوابطِ والاعتِباراتِ)[1].

وصَوَارِمُ الموْتِ كنايةٌ عنْ ظُهُورِ أحْداثِ الموْتِ ووضُوحِ أسْبابِها، ويَتَّضِحُ التَّصْويرُ فِي تشبيهِ أسْبَابِ وُقُوعِ الْمَوْتِ بيْنَ النَّاسِ، وَوَعْيَهُمْ لَها بِالْعيْنِ والقلْبِ بالصَّوَارِمِ اللَّامِعةِ، بجامعِ الظُّهُورِ والْوُضُوحِ الْبَيِّنْ الْقاطِعِ للشَّكِّ والإعْرَاضِ، وحذفَ المُشبَّهَ، وهُوَ أسْبَابُ الْمَوتِ الوَاضِحَةِ، واسْتعارَ لَها سُيُوفَ الموتِ اللَّامِعةِ، علَى سبيلِ الاستعارةِ التَّصْرِيحِيَّةِ الأصْلِيَّةِ فِي الاسْمِ "صَوَارِمِ"؛ لتكُونَ أبْلغَ فِي الْحُجَّةِ والبَيَانِ عليْهِمْ والسيف أداة الموت الَّتِي لا تَخْفَى، فهِيَ أنْفذُ فِي خَطْفِ الأعْمَارِ.

وكلمةُ **(لَامِعَةً)** تقْيِيدٌ للْحالِ، وترْشِيحٌ للاسْتِعارةِ؛ مُبالغةً فِي إظْهارِ صُورةِ تحقُّقِ وُقُوعِ هذهِ الأسْبابِ، واسْتِتْباعِ ذلكَ لإنْكارِ حالِ المُخاطَبينَ.

---

(١) شرحُ أحاديثَ من صحيحِ البُخاريّ، أ.د/ محمد محمد أبو موسى، ٣٥٦، مكتبةُ وهبة، القاهرة، ط٢، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.

وحرْفُ الْقافِ في قولِهِ: (**قَوَارِعَهُ**) هو حرفٌ (شديدٌ، يكونُ للمُفاجَأةِ تُحدِث صَوْتًا، ولِلْمُقاومةِ، وكِلَا الوصْفَيْنِ يُفْضِيانِ بهِ إلَى أَحاسِيسَ لَمْسِيَّةٍ من القَسَاوةِ والصَّلابةِ والشِّدَّةِ، وَإِلَى أحاسيسَ بصريَّةٍ وسَمْعيَّةٍ، من فُقاعَةٍ تنفَجِرُ، أوْ فُخارةٍ تنْكسِرُ)[1]؛ وهذا الحرفُ يُصوِّرُ هُنا شدَّةَ وقْعِ الْمَوْتِ على المُخاطَبِينَ، ويُقلْقِلُ الشُّعُورَ بمشَاعِرِ القَلَقِ والتَّوَتُّرِ، ويُبَدِّلُ الطُّمأْنِينَةَ خوْفًا يتطلَّبُ النَّجَاةَ، كما يُوحِي بشِدَّةِ الاقْتِرابِ الْمَعْنَويِّ بينَ الكلِمَاتِ والْمشَاعِرِ، مِمَّا يَلْفِتُ شُعُورَ المُخَاطَبِ إلَى مَشَاعِرِ الْمُتكلِّمِ، ويرْبِطُ شُعُورَهُ بشُعُورِهِ.

وبالتَّأمُّلِ في هذا التَّرْكيبِ: (**أَمَا تَرَوْنَ صَوَارِمَ الْمَوْتِ بَيْنَكُمْ لَامِعَةً!، وَقَوَارِعَهُ بِكُمْ وَاقِعَةً!، وَطَلَائِعَهُ عَلَىٰكُمْ طَالِعَةً!، وَفَجَائِعَهُ لِعُذْرِكُمْ قَاطِعَةً!، وَسِهَامَهُ فِيكُمْ نَافِذَةً!، وَأَحْكَامَهُ بِنَوَاصِيكُمْ آخِذَةً!**)؛ نجِدُ أنَّهُ صُورةٌ أدبيَّةٌ كاملةٌ، تحملُ صُورًا جُزئيَّةً في تصْويرِ هيئةِ الموتِ وأفْعالِهِ، وصَوَلاتِهِ وَجَوَلاتِهِ بيْنَ رِقابِ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا؛ بهيئةِ البَطَلِ المِغْوارِ فِي الْحَرْبِ، لا يَقِفُ أمامَ قبْضتِهِ أحدٌ، فهُوَ لَا يرْحَمُ سيْفَهُ، ولَا يُخَيِّبُ سَهْمَهُ، والخَطيبُ يُصَوِّرُ للمُخاطَبِينَ ذلكَ؛ دحْضًا لهُمْ بالحُجَّةِ ولأعْذارِهِمْ، حيثُ إنَّهُمْ يَروْنَ أحْكامَ المَوتِ النَّافِذَةَ، ولا يرْتدِعُونَ، فمَثَّلَتْ هيئةُ الاسْتِعارةِ مقامَ التَّحقِيرِ والتَّوْبيخِ لهُمْ عندَ عدمِ الاتِّعاظِ بأحْدَاثِ الْمَوْتِ فِي أوْضَحِ الصُّوَرِ، وجَعَلتِ التَّفكُّرَ فِي قُدُومِ الْمَوْتِ فِي الْحَالِ يُساقُ إليْهِمْ سَوْقًا.

وتخصيصُ الموتِ بكلِّ هذهِ المُضافاتِ (**صَوَارِمَ الْمَوْتِ، وَقَوَارِعَهُ، وَطَلَائِعَهُ، وَفَجَائِعَهُ، وَسِهَامَهُ، وَأَحْكَامَهُ**)؛ فيهِ تنبيهٌ يفيضُ بالقُوَّةِ والعُنفِ، كأنَّهُ يقرعُ لهُمْ جرسًا قويًّا لتنْبيههِمْ؛ فحشدَ كُلَّ معاني الموتِ وآلامَهُ، ووضعها أمامَهُمْ؛ حتَّى يُمكِّنَ المعنى بأكبرِ قدرٍ مُمْكنٍ، ويُثبِّتَ أثرهُ في نُفُوسِهِم.

---

(١) خصائص الحروف العربية ومعانيها دراسةٌ، حسن عبَّاس، ١٠٧.

واتِّحادُ كلماتِ تلكَ الفقرةِ بالسَّجْعِ المُتوازيِّ يُصوِّرُ اسْتِيفاءَها لِصُوَرِ الْموْتِ وأخبارِهِ، ومَا يفعلُهُ فِي النَّاسِ، وهذهِ الأُمُورُ كُلُّها تجْتمِعُ فِي قطْعِ الأملِ عنِ النُّفُوسِ، وتعلُّقِها بالدُّنْيَا.

وبعْدَ أنْ أَذاقَهُمْ ذَمًّا وتقْريعًا وتوْبِيخًا أَلِيمًا؛ انْطلَق مِن مُّراعاةِ حالِهِم مِنَ الغَفْلةِ والتَّباطُؤِ، وعدمِ الإحْسَاسِ أوِ الشُّعُورِ بمَسْؤُولِيَّتِهِمْ، وتفْرِيطِهِمْ فِي جنْبِ اللهِ، بتكرارِ الاسْتِفْهامِ؛ ذمًّا بعدَ ذمٍّ، فقالَ:

"فَحَتَّامَ، وَإِلَامَ، وَعَلَامَ التَّخَلُّفُ وَالْمُقَامُ؟!، أَتَطْمَعُونَ فِي الْبَقَاءِ الْأَبَدِّ؟!"

أيْ إنَّكُمْ فِي حالةٍ من بَلادَةِ الشُّعُورِ والتَّفْكِيرِ قدِ اسْتفزَّتْ شُعُورَ المُتكلِّمِ، فتداعتْ بانْفعَالاتِهِ كُلُّ هالاتِ الاسْتِفْهامِ، فجَاءتْ (حتَّامَ) لِلاسْتِبْطَاءِ، و(إلامَ) تبْحَثُ عنْ غايتِهِ، و(عَلامَ) تبحَث عنْ سبَبِهِ، ثُمَّ أخَذَهُ ذلكَ للحديثِ عنْ هذا السببِ المُقِيتِ (**الْبَقَاءِ الْأَبَدِّ**).

والاستِفهامُ في قولِه: (**أَتَطْمَعُونَ فِي الْبَقَاءِ الْأَبَدِّ؟!**) أُريدَ بهِ تَحقيقُ الفهْمِ عندَ المُخاطَبينَ بعدمِ البقاءِ والمُكثِ في الحياةِ، فَالاسْتِفهامُ " إِمَّا طَلَبُ فَهْمِ الْمُسْتَفْهَمِ أَوْ وُقُوعُ فَهْمٍ لِمَنْ لَمْ يَفْهَمْ كَائِنًا مَنْ كَانَ [1]".

والاسْتِفهاماتُ المتواليةُ تلكَ ("فَحَتَّامَ، وَإِلَامَ، وَعَلَامَ التَّخَلُّفُ وَالْمُقَامُ؟!، أَتَطْمَعُونَ فِي الْبَقَاءِ الْأَبَدِّ؟!") تُركِّزُ على فكرةِ (لا تخلُّفَ ولا طمعَ في مقامٍ)؛ حتَّى يجعلَها الخطيبُ يقينًا عندهُمْ، وجُزءًا مِنْ مبادئِهِمْ.

ثُمَّ احْتدَّتْ مشاعِرُهُ، فاتَّجَهتْ إلَى أقْوَى صُوَرِ التَّوْكِيدِ، وهُوَ الْقَسَمُ بأجَلِّ مَا يُقْسَمُ بهِ، وهُو (الْواحِدُ الصَّمَدُ)، اخْتِيَارًا يدْحضُ هذا السَّببَ – الطَّمعَ فِي بقاءٍ

---

(١) مُعترَكِ الأقرانِ في إعجازِ القُرآنِ، للإمامِ أبي الفضْلِ جلالِ الدِّين عبدِ الرحمن أبي بكرٍ السيوطيّ (ت ٩١١هـ)، ١/ ٣٣٤، دار الكُتب العلميَّة، بيروت – لبنان، د.ت.

الأَبَدِّ- ويُزْهِقُهُ، ويُوقِفُ عندَهُ عُقُولَ المُخَاطَبِينَ وقُلُوبَهُمْ، فتنْصَرِفَ إلَى ما يقولُ، وتنْتبِهَ إلَى فحْواهُ، فينصرفَ كلامُهُ داخلَهُمْ، وينْظُرُونَ فِي أحْوالِهِمْ، حيثُ قالَ:

(كَلَّا، وَالْوَاحِدِ الصَّمَدِ؛ إنَّ الْمَوْتَ لَبِالرَّصَدِ، لَا يُبْقِي مِنْكُمْ عَلَى أحَدٍ)

ثُمَّ كانَ الجوابُ بـــ (كَلَّا) وحْدَها، والأصلُ (كلَّا لا بقاءَ)، وذلك للإيجاز، ولعدمِ الخُرُوجِ عنِ الحالةِ الانفعاليَّةِ الَّتي ولَّدتْها تلكَ الأساليبُ الإنشائيَّةُ المُتتاليَةُ، سواءً بالاستِفْهامِ، أو بالقَسَمِ، ولئلَّا يقطعَ حديثَهُ بالخُروجِ عن الدَّائِرةِ الَّتِي سلكَها، وقد كانَ لهذِهِ الانفِعالاتِ أثرٌ فِي صرْفِ المُخَاطَبِينَ إلى الخطيب، وكان الإطلاقُ بحرْفِ الألفِ وصُورَتِهِ يقفُ حَدًّا يمْنعُ هؤلاءِ المُخَاطَبِينَ عنِ الخَوْضِ فِي غَيِّهِمْ، والمُمَاطَلَةِ فِي الفُوَاقِ منْ غَفْلَتِهِمْ.

واخْتارَ مِنْ بينِ أسْماءِ اللهِ الحُسنَى (الواحِدِ، والصَّمدِ)، دونَ غيرِهِما؛ لِمُناسبتِهِما للسِّياقِ؛ حيْثُ التَّخلُّصُ مِنْ تِلكَ الصِّفاتِ المُهْلِكةِ، والالتِجاءِ إلى اللهِ -ﷻ- وحْدَهُ؛ فهُو الواحِدُ "الفَردُ الَّذي لا ثانيَ لهُ، ولا نَظِيرَ، ولا شَبيهَ، وهو الواحِدُ الَّذي يَعْتَمِدُهُ عِبادُهُ، ويقْصِدونَهُ، ولا يَتَّكِلُونَ إلَّا عليْهِ[1]"، وهو الصَّمدُ "أي السَّيِّدُ الَّذي ليس فوقَهُ أحدٌ، يصْمدُهُ النَّاسُ في حوائِجِهِمْ، أي يَّقْصدُونَهُ، ويعْتَمِدُونَهُ[2]"، فالْجَأُوا أيُّها النَّاسُ إلى الوَاحِدِ المَقْصُودِ لقضاءِ الحَاجَاتِ- ﷻ-.

وقولُهُ: **(إنَّ الْمَوْتَ لَبِالرَّصَدِ)** كِنايةٌ عنْ شِدَّةِ انْتِباهِ الموْتِ لِمَقْصُودِهِ، وتَرَبُّصِهِ بهِ، وفيه كذلكَ استعارةٌ مكْنِيَّةٌ؛ حيثُ استعارَ الترصُّدَ - وهو من صفاتِ الكائنِ الحيِّ- مُصوِّرًا حالَ المُخاطَبِينَ مع الموتِ، كأَنَّهُ كائنٌ صَيَّادٌ يترصَّدُ لِفريستِهِ، يَقِظٌ يرصُدُ هدفَهُ، ويتتبَّعُهُ، ويَصِلُ إليْهِ، لا يفْلِتْ منْهُ أبدًا، وحذفَ المُشبَّهَ بهِ، ورمزَ إليْهِ بالرَّصَدِ، والتَّأكيدُ بـــ (إنَّ، واللامِ الدَّاخِلةِ على خبرِها)؛ على سبيلِ التَّنْبيهِ.

---

(١) اشتِقاقُ أسماءِ اللهِ، لأبي القاسِمِ عبدِ الرحمن بن إسحاق الزَّجَّاجيّ (ت ٣٤٠هـــ)، ٩٠، دار الرسالة- بيروت، ط٢، ١٤٠٦هـــ - ١٩٨٦م.

(٢) السابق، ٢٥٢.

وإسنادُ عدمِ البقاءِ إلى الموتِ في قولِهِ: **(لَا يُبْقِي مِنْكُمْ عَلَى أَحَدٍ)** مجازٌ حُكمِيٌّ، علاقتُــهُ السَّببيَّةُ، وهو نفْــيٌ أرادَ بِهِ الخطِيبُ تَتَبُّــعَ صُورةِ الموْتِ للنِّهايةِ، بحيثُ لا يدعُ مجالًا للانْتِظارِ والتَّمَهُّلِ، وهو كــذلكَ تذكيرٌ للمُخاطَبِينَ بنهايتِهم مَّــعهُ-الموت-، حتَّى لا يُبْقِي لهم أملًا.

ثُمَّ يُقَرِّبُ خُطُواتِ هذا المُتربِّصِ منهُمْ، المُترصِّدِ لهُمْ، وهو الموتُ، بالأداةِ (كَأنْ) في قوله:

" فَكَأَنْ دَارَتْ عَلَيْكُمْ دَوَائِرُهُ، وَدَهَمَتْكُمْ عَسَاكِرُهُ، وَكُشِفَتْ لَكُمْ سَرَائِرُهُ، وَنَزَلَ بِكُلِّ امْرِئٍ مِنْكُمْ مَا يُحَاذِرُهُ، فَسَدَّ مِنْكُمْ مَجَارِيَ الْأَنْفَاسِ، وَأَسْكَنَكُمْ ظُلَمَ الْأَرْمَاسِ، وَمَضَتِ الْحَيَاةُ، وَحَصَلَتِ التَّبِعَاتُ، وَتَرَادَفَتِ الْمُفْظِعَاتُ، وَتَضَاعَفَتِ الْحَسَرَاتُ"

وقد أبانَ عنْ معْنَى هذا التَّرْكيبِ بالاسْتعارةِ التَّمثِيليَّةِ الَّتي صوَّر بها هيئةَ الموتِ في شُمُولِهِ وإحاطتِهِ بكلِّ النَّاسِ، وعدمِ الْفِرارِ منْهُ، فدَائرتُهُ مُحْكمةٌ مُغلقةٌ لا يفلِتُ منْ قبْضتِهِ أحدٌ؛ بهيئةِ قائدِ الجيشِ الَّذي يُحْكِمُ الدَّائرةَ حولَ العدُوِّ، وتُداهِمُهُ عساكِرُهُ، والدَّوائِرُ جمعٌ أريدَ بِهِ التَّهْديدُ والتَّخْويفُ، قالَ اللهُ -ﷻ-: ﴿**وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۝٦**﴾ [الفتح: ٦]، أيْ "مَا يَظُنُّونَهُ ويتربَّصُونَهُ بِالْمُؤْمِنِينَ فهُو حَائِقٌ بِهِمْ ودَائِرٌ عَلَيْهِمْ"[(١)].

وقولُهُ: **(عَلَيْكُمْ)** اسْتِعلاءٌ مَجازِيٌّ يُصوِّرُ ضَعْفَ الْمُخَاطَبِينَ أمامَ قبْضةِ الْموت.

وقولُهُ:**(وَدَهَمَتْكُمْ عَسَاكِرُهُ)** كنايةٌ عنِ اقْترابِ النِّهَايةِ، فمُدَاهَمةُ الْعسَاكِرِ بدايةُ الهُجوم، ووُقُوعِ الخَطْبِ.

---

(١) تفسير الألوسي، للعلامة: أبي الفضلِ شهاب الدين السيد محمود الألوسيّ البغداديّ (ت ١٢٧٠هـ) مجلّد ١٤، صـ ٣٢٥، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، د.ت.

وقولُهُ: (**وَكُشِفَتْ لَكُمْ سَرَائِرُهُ**) أيْ ما يُخْفِيهِ الْمَوْتُ مِنْ شِدَّةٍ وكَرْبٍ تدْعوكُمْ للتَّفكُّرِ والتَّدَبُّرِ، والنَّظَرِ فِي أحْوَالِكُمْ.

وقولُهُ: (**وَنَزَلَ بِكُلِّ امْرِئٍ مِنْكُمْ مَا يُحَاذِرُهُ**) فيهِ زيادةُ ترْهِيبٍ للنُّفُوسِ، وحَثٌّ لَها عَلَى الاسْتِعْدَادِ، و(**مَا يُحَاذِرُهُ**) كنايةٌ عنِ الموتِ.

وصَوْغُ هذهِ الأسماءِ في هيئةِ جُمُوعِ الكَثْرةِ في أغلبِها،" **دَوَائِرُهُ، عَسَاكِرُهُ، سَرَائِرُهُ، الْأَنْفَاسِ، ظُلَمَ الْأَرْمَاسِ، التَّبِعَاتُ، الْمُفْظِعَاتُ، الْحَسَرَاتُ**" فيهِ تهْويلٌ وتحْذِيرٌ مِنْ أمرِ المَوْتِ وأفْعالِهِ القاسيةِ، وتَبعاتِهِ المفْظِعةِ.

وتتجلَّى بلاغةُ التَّعْبيرِ بالأفْعالِ الماضِيةِ في هذهِ الفقْرةِ وتواتُرِها وتقريبِها بـــ (كَأَنْ)؛ لأنَّهُ قدْ تحقَّقَ وَقْعُها معَ غيْرِ المُخاطَبينَ، ولَمْ تُحرِّكْ لَهُمْ ساكنًا؛ فلجأَ إليْها الْخَطيبُ، يُقرِّبُ أحْدَاثَها؛ تنْفيرًا لَهُمْ، للْفِرارِ منْ قبْضةِ الْموْتِ والأحْداثِ الْواقعةِ فيهِ الَّتي لا يُنْكِرُونَها.

وبعْدَ أنْ صوَّرَ أفعالَ المَوْتِ حينَ يحيقُ بِهِمْ؛ أتبعَ ذلكَ بفاءِ التَّعقيبِ ما يحْدُثُ لَهُمْ مِنْ أمورٍ بفعلِ الموتِ، فقال:

"فَسَدَّ مِنْكُمْ مَجَارِيَ الْأَنْفَاسِ،
وَأَسْكَنَكُمْ ظُلَمَ الْأَرْمَاسِ،
وَمَضَتِ الْحَيَاةُ، وَحَصَلَتِ التَّبِعَاتُ،
وَتَرَادَفَتِ الْمُفْظِعَاتُ، وَتَضَاعَفَتِ الْحَسَرَاتُ"

وهذا التَّركِيبُ فيهِ تذْكِيرٌ بأفعالِ الموتِ السَّيِّئةِ فِي النُّفُوسِ، ودعْوةٌ للعملِ على ما يُخْرِجُهُم مِّنْ غفْلتِهِمْ، وهُو العملُ الصَّالِحُ، والتركيبُ كُلُّهُ حكايةٌ للأفعالِ التَّابعةِ للموتِ، وإجْراءاتِ ما بعدَهُ، فَبعْدَ قبْضةِ الْموْتِ تأْتِي حَصِيلةُ الدُّنْيَا، فإذا بِها تَبعاتٌ ناشِئةٌ عن ثقلِ المَعاصِي، وقولُهُ: (**الْحَسَرَاتُ**) إمَّا حسرَاتُ الميِّتِ على نفسِهِ، وإمَّا حَسَراتُ أهلِهِ عليْه، وقولُهُ: (**ظُلَمَ الْأَرْمَاسِ**) تَنْكيلٌ لَهُمْ بزوالِ الدُّنيَا وبَهْجتِها، فمهْمَا يكنْ لَها مِنْ بريقٍ ستنْتَهِي إلَى هذهِ الظُّلَمِ وتِلكَ الأرْماسِ.

ثُمَّ يتعجَّبُ من غفلةِ وجهلِ من اتبع هذه السبيل، فيقول:

" فَمَا أَغْفَلَ مَنْ هَذِهِ سَبِيلُهُ عِنِ الاسْتِعْدَادِ، وَمَا أَجْهَلَ مَنْ قَصَّرَ فِي الزَّادِ لِيَوْمِ الْمَعَادِ، فَخُذُوا - رَحِمَكُمُ اللهُ - مِنْ شَبَابٍ إِنْ فَاتَ أَعْجَزَكُمْ لِحَاقُهُ، وَمِنْ مَشِيبٍ فِرَاقُ حَيَاتِكُمْ فِرَاقُهُ، وَبَادِرُوا وَالْقَوْلُ يُسْمَعُ، وَالْمَعْذِرَةُ تَنْفَعُ، وَفِي الْخَلاصِ مَطْمَعٌ، وَفِي الْعُمُرِ مُسْتَمْتَعٌ، قَبْلَ أَنْ يُغْلَقَ الرَّهْنُ بِمَا فِيهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ ﴾ [سورة عبس: ٣٤ -٣٧]"

قولُهُ: (**فَمَا أَغْفَلَ، وَمَا أَجْهَلَ**) تمهيدٌ للطَّلب بعْدَهُ (**فَخُذُوا - رَحِمَكُمُ اللهُ - مِنْ شَبَابٍ إِنْ فَاتَ أَعْجَزَكُمْ لِحَاقُهُ...**)، وبيَانُ داعِيهِ، فشِدَّةُ الغَفْلةِ والْجَهْلُ دَاعِيانِ للنُّصْحِ والتَّوْجيهِ بالأَمْرِ الْمَجَازِيِّ، الَّذِي يَشُوبُهُ الرِّفْقُ لِحالِ المُخَاطَبِينَ، والَّذِي أَعْرَبَ عنْهُ الاعْتِراضُ بالدُّعَاءِ لَهُمْ بالرَّحْمَةِ "- **رَحِمَكُمُ اللهُ** - "، وكأَنَّهُ يسْتَجْلِبُ لَهُمْ بهِ رحْمةً بِهِم مِّنْ أَنْفُسِهِمْ، ويرْفَعُ فيها قيمةَ وقْتِ الشَّبَابِ وَأَهمِّيَّتِهِ؛ بتنْكِيرِهِ، والتَّحْذِيرِ منْ فواتِهِ بوصْفِهِ " **إِنْ فَاتَ أَعْجَزَكُمْ لِحَاقُهُ** "، وَقولُهُ: (**أَعْجَزَكُمْ**) بيانٌ لِعاقِبةِ فَواتِهِ، وتشْدِيدٌ للتَّحْذِيرِ منْ خطرِ فواتِهِ، وتأْكِيدُ هذا التَّحْذِيرِ بالطَّرفِ الآخَرِ الأكْثرِ خطرًا "**مَشِيبٍ**" وَجُملةُ (**فِرَاقُ حَيَاتِكُمْ فِرَاقُهُ**) ترْهيبٌ منَ الغفْلةِ في أواخِرِ الفُرَصِ وأوْحدِهَا، وقدْ زَادَ هذا المعنى قوَّةً كلمةُ (**فِرَاقُ**)، وتكْرَارُها معَ المَشِيبِ والحَياةِ، وارْتباطُ الحياةِ بالمَشِيبِ كارْتباطِهِ بالمَوْتِ، وَكَلِمةُ (**فِرَاقُ**) مُوحِشَةٌ مُخِيفةٌ، فأدَّتْ معْنَى التَّخْويفِ والرَّهْبةِ.

وتقديمُ المُسندِ (**فِرَاقُ حَيَاتِكُمْ**) على المُسندِ إليْهِ (**فِرَاقُهُ**)، إذِ الأصلُ (**فِرَاقُهُ فِرَاقُ حَيَاتِكُمْ**)؛ لكونِهِ - المُسندِ- أعْلقَ بالغَرَضِ، وهو التَّنْبيهُ على المَوتِ.

وقولُهُ: (**وَبَادِرُوا وَالْقَوْلُ يُسْمَعُ، وَالْمَعْذِرَةُ تَنْفَعُ، وَفِي الْخَلاصِ مَطْمَعٌ، وَفِي الْعُمُرِ مُسْتَمْتَعٌ**)، أي الآن، فواوُ الحَالِ هُنا تُؤكِّدُ معنى وجوب سُرْعَةِ الامْتِثَالِ بلا مُهْلَةٍ ولا تفْكيرٍ، والأمْرُ(**بَادِرُوا**) خرجَ إلى التَّعْجِيلِ والإِسْرَاعِ بالتَّوبةِ قبلَ فواتِ

الأَوانِ، وهذه الأحْوالُ أحْوالُ اسْتِجابةِ التَّوْبَةِ، وفُرْصَةِ وُجُودِها، فالتَّذْكِيرُ بها تذْكيرٌ بمَا فِيها مِنْ فُرَصٍ، فلوْ فاتَ سَمَاعُ الْقوْلِ فاتَ نفْعُ الْمَعْذِرةِ، ولوْ فَاتَ نفْعُ المَعْذِرةِ فاتَتِ النَّجاةُ.

وحُذِفَ معْمُولُ الفِعْلِ (**بَادِرُوا**)، أي بادِرُوا العملَ، أو بادِرُوا التَّوْبةَ والخلاصَ من الذُنُوبِ والأهْواءِ؛ للتَّعْمِيمِ.

وتقديمُ المُسندِ إليهِ في قولِهِ: (**وَالْقَوْلُ يُسْمَعُ، وَالْمَعْذِرَةُ تَنْفَعُ**) وتأخيرُه في قولِهِ: (**وَفِي الْخَلاصِ مَطْمَعٌ، وَفِي الْعُمُرِ مُسْتَمْتَعٌ**)؛ للعنايةِ بالمُقدَّمِ والاهْتِمَامِ بِشأْنِهِ، فهُوَ الْغَرَضُ المَقْصُودُ بالذِّكْرَى.

ثُمَّ قَيَّدَ ذلكَ الأمْرَ بالظَّرْفِ الزَّمَانِيِّ " **قَبْلَ أَنْ يُغْلَقَ الرَّهْنُ بِمَا فِيهِ**"، مُذكِّرًا بِوقتِ غَلْقِ الرَّهْنِ، باسْتِعارةٍ جليلةٍ منْ قولِ اللهِ -ﷻ-: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾**﴾ [سورة المُدَّثِّر: آية ٣٨]، وكَذلِكَ قولُهُ- ﷻ-:﴿**وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾**﴾[الطُّور: ٢١]، فالإنسانُ مرْهُونٌ عندَ ربِّهِ بعَمَلِهِ، فإن لَّمْ يُؤَدِّ حقَّ اللهِ فِي الدُّنْيا، أغْلقَ عليْهِ فِي الآخِرةِ بالْعذابِ، وهكذا اسْتعارَ ابْنُ نُباتةَ صُورَةَ الرَّهْنِ المَادِّيِّ الَّذِي يكُونُ فيهِ اضطِّرارٌ، بغرضِ التَّحْذيرِ والتَّرْهِيبِ منْ عدمِ أداءِ حقِّ العِبادةِ للهِ - ﷻ- فِيمَا كلَّفَ بهِ العِبادَ في دارِ الدُّنْيَا، فيُحْبَسَ فِي الْعذابِ، كمَا يحبسُ الرَّهْنَ لمُسْتَحِقِّهِ.

والتَّعْبِيرُ بالْغَلْقِ دُونَ الْحَبْسِ أَبْلغُ فِي قَسْوَةِ تَصْوِيرِ انْتِهَاءِ الْمَوْقِفِ مِمَّا يَلْحَقُ بالإنْسَانِ؛ خوْفًا واتِّعَاظًا، و(**يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ ...**)بَيانٌ لِحالِ هذا اليوْمِ ومَا يَحْدُثُ فِيهِ، فيفر المرء من أخيه.

وذِكْرُ شيءٍ منَ القرآنِ الكريمِ قبلَ خِتامِ الخُطْبَةِ؛ تمهيدٌ للخِتامِ، ودلالةٌ عليهِ، وتهْيئةٌ للنُّفُوسِ لانْتِهاءِ الخُطْبَةِ.

*****

ثالثًا: خاتمةُ الخُطبةِ: وتَشْملُ الدُّعاءَ، والتَّضْمِينَ بآياتٍ من القُرْآنِ الكَرِيمِ.

ثُمَّ يَختِمُ ابنُ نباتةَ خُطْبَتَهُ، فيقُولُ:

جَعَلَنَا اللهُ وَإِيَّاكُمْ مِمَّنْ آثَرَ الدَّارَ الأُخْرَى، وَاسْتَقْصَرَ عُمُرَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَأَحْسَنَ الاسْتِعْدَادَ لِلْمَعَادِ وَالرُّجْعَى، إِنَّ أَجْلَى الْمَوَاعِظِ لِدَرَنِ الْقُلُوبِ، وَأَمْحَى الإِنْذَارِ لِمُسَطِّرَاتِ الذُّنُوبِ؛ كَلامُ عَلَّامِ الْغُيُوبِ: قَالَ تَعَالَى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [سورة الأنعام: ١٥٨]".

ختمها بالدُّعاءِ لِنَفْسِهِ والمُخاطَبِينَ بأنْ يكُونُوا مِمَّنْ آثرَ الدَّارَ الأُخْرَى، وهذا كنايةٌ عنْ أخْذِ الْعِبْرةِ، والْفوْزِ بنعِيمِ الْجَنَّةِ، وذلكَ باسْتِقْصَارِ عُمرِهِ فِي الدُّنْيا، وحُسْنِ اسْتِغْلالِهِ بالاسْتِعْدَادِ لِلِقَاءِ اللهِ -ﷻ-، والرُّجُوعِ إليْهِ بالْحِسَابِ.

وخَتْمُ الْكلامِ بالدُّعَاءِ تذْكِيرٌ برحمةِ اللهِ-ﷻ-، وحَاجةِ العِبادِ إلى حَوْلِهِ وقُوَّتِهِ، وفيهِ تذْكيرٌ بالرُّجُوعِ إليْهِ - سُبحانَهُ-، والتَّضرُّعُ لهُ بالفَضْلِ والْمِنَّةِ.

ثُمَّ خَتَمَ هذه الفقرةَ بأعْلَى درجاتِ الموْعِظةِ، وذلك منْ خِلالِ صيغةِ أفعلِ التفضيلِ المؤكَّدَةِ بـــ (إنَّ) التي تفيدُ حتميَّةَ ثبوتِ الخبرِ للمبتدأِ (**إِنَّ أَجْلَى الْمَوَاعِظِ**)، (**وَأَمْحَى الإِنْذَارِ**)، فلا تذهبُ النَّفسُ بعدَهُ إلَى غيْرِهِ، فكأنَّهُ وصلَ بالمخاطَبِ إلى آخرِ مرْتبةٍ للمواعِظِ، فلا يكونُ للنَّفسِ بعدها تأمُّلٌ ولا انتظارٌ، ولا يُوجدُ بعدَ هذهِ الصِّيغةِ شيءٌ أقْوَى لِمَحْوِ الذُّنُوبِ من غَيْرِهَا، فضْلًا عن إفادةِ التفضيلِ الدَّوامَ والاسْتِمرارَ، وصيغةُ المُبالغةِ (**عَلَّامِ الْغُيُوبِ**)؛ للتَّحْذيرِ والتَّرْهِيبِ من ذُنوبِ الخفاءِ.

وقوله: (**لِدَرَنِ الْقُلُوبِ**) استعارةٌ تصريحيَّةٌ أصليَّةٌ؛ حيثُ شبَّه النُّكْتةَ السَّوْداءَ[1] التي

---

(١) كما في الحديثِ الشَّريفِ: (إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً، نَكَتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ صُقِلَتْ، فَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ، فَذَلِكَ الرَّانُ). رواه التّرمذي، وقال: "حديث حسن صحيح"، حديث رقم ٣٣٣٤.

تحلُّ بالقلبِ مِنْ أثَرِ الذُّنُوب، بالوَسَخِ أوِ الدَّرَنِ، فكِلاهُما يُذهبُ بجمالِ ما يحلُّ بهِ، ويُطفئُ نورَهُ وبهاءَهُ، وحذفَ المشبَّهَ، وذكر المُشبَّهَ بهِ؛ للبيانِ عن النُّكْتةِ السَّوْداءِ المَعْنويَّةِ بالدَّرَنِ الحِسِّيِّ؛ ليَخْرُجَ منَ الْعقلِ إلى حَيِّزِ المُشَاهَدَةِ، كأنَّهُ جعلَ الذُّنُوبَ الَّتِي تُخالِطُ القُلُوبَ كالأوْساخِ، والموْعظَةَ جَلاءً لها.

و (**لِمُسَطَّرَاتِ الذُّنُوبِ**)، أي المكتُوبةِ المُسطَّرةِ المُسجَّلَةِ على صاحِبِها.

وهُنَا أسْدلَ ابنُ نُباتةَ الستارَ على خُطبتِهِ بهذِهِ الكلماتِ البليغةِ الَّتِي تبعثُ الوجلَ في القُلوبِ، والخشْيةَ من ربِّ العالمينَ.

ولَّما كانَ القرانُ الكريمُ دستورَ الحياةِ؛ جعلهُ ابنُ نُباتةَ آخِرَ مَا يبْقى في الأسْماعِ؛ لأنَّ به الهدايةَ، وصلاحَ الحالِ والمآلِ، قال اللهُ: **قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩ ﴾** [سورة الإسراء، آية ٩].

فعَلى الإنسانِ أنْ يُبادرَ ويُسارِعَ في الرُّجُوعِ إلى كِتابِ ربِّهِ، قبلَ فَواتِ الأوانِ، وحُلُولِ الحسْرةِ، فلا ينْفعُهُ حسرةٌ ولا ندمٌ؛ لذلك اختتم ابنُ نُباتةَ خُطبَتَهُ بتلك الآيةِ الكريمةِ الَّتِي اخْتَارَها، وكأنَّهُ يقولُ بها مَاذا تنْتظِرُونَ بعدَ عِلْمِكُمْ بكُلِّ هذا، وتذكيرِكُمْ، ولا تتأثَّرُونَ؟!.

*****

المبحثُ الثَّاني

خَصائصُ الخُطبةِ محلَّ البحث، وسِماتُ أسْلُوبِها.

هذهِ الخُطْبةُ تُعدُّ أنموذجًا أمْثَلَ لِخُطبِ التَّذْكيرِ بالموتِ والمَعادِ؛ حيثُ امْتلكَ ابنُ نُباتةَ مِنَ أدَواتِ البيَانِ، ومَهارةِ التَّعْبيـــــرِ مَا دلَّ على قُوَّةِ عقلِهِ، وقُـــــدْرتِهِ على صِياغةِ ألفاظِ خُطْبتِهِ، والتَّعبيرِ عنْ معانيها بطريقةٍ مؤثِّرةٍ، تَشْهَدُ لهُ بصِدْقِهِ وأمانتِهِ في نُصْحِ مُتلقِّيهِ، ودعْوتِهِمْ إلى ترْكِ المعاصِـــــي، والتوجُّـــــهِ إلى اللهِ – تعالى–، وإيثارِ الحياةِ الآخرةِ على الدُّنيا، والتَّحلِّي بمكارمِ الأخلاقِ، وغَيْرِ ذلكَ، ممَّا يدُلُّ على اهتِمامِهِ بجانبِ الدَّعْوةِ، والنُّصْحِ والإرشادِ.

وكانَ لهذهِ الخُطبةِ منَ الخصَائصِ والسِّماتِ ما يُميِّزُها، ويجعلُ ابنَ نُباتةَ حقيقًا بنعتِهِ بـــ (خَطِيبِ الخُطباءِ)، ومِنها:

- تميَّزتْ خُطبتُهُ في ذِكْرِ الموتِ والمعادِ بوحْدةِ البناءِ الفنِّيِّ؛ حيثُ اشتملتْ على مُقدِّمةٍ فيها حَمْدُ اللهِ – تعالى–، والثَّناءُ عليه، والصَّلاةُ والسَّلامُ على رسولِهِ (ﷺ)، ومدحُهُ كذلكَ، ثمَّ موْضُوعِ الخُطبةِ، ثُمَّ خاتمةِ الخُطبةِ، ويُضمِّنُها ذِكرًا مِنَ القُرآنِ الكريمِ.
- أمَّا المُقدِّمةُ؛ فكلماتُها، وتراكيبُها تُعدُّ تمهيدًا لموْضُوعِها، ودالَّةً عليهِ، وفيها حُسْنُ افْتِتاحٍ يجذِبُ المُتلقِّي، ويشْرحُ صَدرَهُ لاستِقبالِ ما بَعدهُ.
- وأمَّا الموضُوعُ؛ فذُو فِقْراتٍ متسلسلةٍ، يتخلَّصُ فيها ابنُ نُباتَةَ مِنْ فكرةٍ إلى أخْرَى، مُتعلِّقةٍ به، ودالَّةٍ على ما بعدَها، وفي آخِرِهِ تهيئةٌ للخاتمةِ.
- وأمَّا الخاتمةُ؛ ففيها حُسْنُ انتِهاءٍ يقرُّ عندهُ عقلُ المتلقِّي، ويُسلِّمُ فُؤادُهُ بالنتائجِ.
- مِنْ خصائِصِ أسْلُوبِ هذهِ الخُطبةِ أنْ غلبَ عليها الأسْلوبُ الإنشائِيِّ؛ الَّذِي اسْتخْدمَهُ ابنُ نُباتةَ على سبيلِ تهييجِ المشاعرِ والانفعالاتِ عِندَ المُتلقِّينَ، ولْم يأتِ

بجُملٍ خبريَّةٍ إلا في مواضِعها، كالمُقدِّمةِ، وعندَ حدِيثِهِ عنِ الموْتِ وقْتَ حُلُولِهِ، وذِكرِ أحداثِهِ كأنَّها وقعتْ بالفِعلِ؛ ليُمثِّلَها بعينِ الخيالِ للمُتلقِّينَ، وذلك في قولِهِ: (**إنَّ الْمَوْتَ لَبِالرَّصَدِ، لَا يُبْقِي مِنْكُمْ عَلَى أحَدٍ،...**).

- تصدَّرَ الاستفهامُ الأساليبَ الإنشائيَّةَ، حيثُ ورد في اثنيْ عشرَ موضِعًا، وخرجَ إلى أغراضٍ مجازيَّةٍ، هي التَّوبيخُ، والتَّقْريرُ، والتَّعجُّبُ، والإنْكارِ، والاسْتِبطاءِ، وتحقيقِ الفَهْمِ، وتنوَّعتْ أداتُهُ بينَ الهمزةِ، ومَنْ، وعَلامَ، وإلامَ، وحتَّامَ، والسَّببُ في غلبةِ أسلوبِ الاستِفهامِ على هذهِ الخُطبةِ أنَّ موْضُوعَها يتطلَّبُهُ؛ ذلكَ ما كانَ مِنْ جُمهورِ ابنِ نُباتةَ مِنْ غفلةٍ عنِ الموْتِ، وبُعدٍ عنِ اللهِ، وأملٍ في طولِ الحياةِ، وغيرِ ذلكَ منَ الأمورِ التي استدْعتْ تساؤُلًا تفاوتتْ أغراضُهُ بينَ تقريرٍ، وإنكارٍ، وتوبيخٍ.
- تلاهُ النِّداءُ؛ حيثُ وردَ في خمسةِ مواضِعَ، ولزمَ أداتيْنِ، هما: (أيُّ، يا).
- ثمَّ الأمرُ؛ حيثُ ورد في موضِعيْنِ، وهما قولُهُ: (**فَخُذُوا - رَحِمَكُمُ اللهُ - مِنْ شَبَابٍ إنْ فَاتَ أَعْجَزَكُمْ لِحَاقُهُ....، وَبَادِرُوا وَالْقَوْلُ يُسْمَعُ، ...**).
- وقد وردَ القسَمُ مرَّةً واحِدةً، وذلك في قولِهِ: (**كَلَّا، وَالْوَاحِدِ الصَّمَدِ**).
- وخرج الخبرُ من معنًى حقيقيٍّ إلى إنشاءِ الدُّعاءِ في موضِعٍ واحدٍ هو قولُهُ: (**جَعَلَنَا اللهُ وَإِيَّاكُمْ مِمَّنْ آثَرَ الدَّارَ الأُخْرَى...**).
- مِنْ خِلالِ دراسةِ الخُطبةِ بلاغيًّا تبيَّنَ طَبعُ ابنِ نُباتةَ في خُطبِهِ في الوعظِ والإرشادِ، وهو ميْلُهُ إلى استِخْدامِ الجوانبِ القويَّةِ المُؤثِّرةِ، ومنها جانبُ الإيقاظِ بالقُوَّةِ، كمَنْ يُمْسِكُ بيدِهِ جرسًا لإيقاظِ النَّائمِينَ، فبدا أسلوبُهُ قويَّ الإيقاظِ والتَّنبيهِ؛ حيثُ درجَ مِنْ أوَّلِ خُطْبتِهِ يُوجِّهُ اتِّهاماتٍ صريحةً إلى مُتلقِّيهِ، ينْقُدُ فيها أفعالَهُمُ المُخالفةَ.
- وفي استِخدامِهِ فِعلَ الأمرِ للوعظِ، وبعدَهُ الدَّعاءَ للمُتلقِّينَ؛ تدرَّجَ أسلُوبُهُ منَ الشِّدَّةِ التي بدأ بها إلى اللِّينِ، حتَّى يستميلَ عقُولَ المُتلقِّينَ، فيستجيبوا لِنُصْحِهِ.

- أمَّا عن أُسْلوبِ التَّأْكِيدِ فِي هذِهِ الخُطبةِ؛ فلمْ يُكْثِرْ منهُ ابنُ نُباتةَ، وقد وردَ في موضِعَيْنِ فقط، وهما قولُهُ: (**إِنَّ الْمَوْتَ لَبِالرَّصَدِ...**)، وقولُهُ: (**إِنَّ أَجْلَى الْمَوَاعِظِ لِدَرَنِ الْقُلُوبِ...**)، وكانتْ أداتُهُ (إنَّ التَّوكيديَّة، ولام التَّأكيدِ الدَّاخِلةِ على الخَبَرِ).
- ولمْ يلجأِ ابنُ نُباتةَ إلى الإكثارِ من التَّوكيدِ؛ لأنَّهُ كانَ يُخاطِبُ مُتلقِّيهِ بأحداثٍ واقعةٍ، لا يُنْكِرُونَها، ولا يشُكُّونَ في وقُوعِها، ولمْ يُنَزِّلْهُمُ الخطِيبُ مترلةَ ذلكَ مِن الإنكارِ والشَّكِّ، فلمْ يحتجْ لتأكِيدِها.
- ومِنْ خصائِصِ أسْلُوبِ هذهِ الخُطبةِ كذلكَ قلَّةُ استِخدامِ طُرُقِ التَّصْوِيرِ البيانيِّ؛ حيثُ استخدمَ ابنُ نُباتةَ الاستِعارةَ التَّصْريحيَّةَ في ثلاثةِ مَواضِعَ، هي قولُهُ: (**يَا سُؤْرَ النَّوَائِبِ**)، وقولُهُ: (**صَوَارِمَ الْمَوْتِ**) ، وقولُهُ: (**لِدَرَنِ الْقُلُوبِ**)، والتَّمْثيليَّةَ في موضِعيْنِ، هما قولُهُ: (**أَخْسَرُ صَفْقَةً**) ، وقولُهُ: (**دَارَتْ عَلَيْكُمْ دَوَائِرُهُ، وَدَهَمَتْكُمْ عَسَاكِرُهُ**)، والمَكنيَّةَ في موضعٍ واحدٍ هو قولُهُ: (**إِنَّ الْمَوْتَ لَبِالرَّصَدِ**)، والمَجازَ المُرسلَ في موضعٍ واحدٍ هو قولُهُ: (**أَخْسَرُ صَفْقَةً**)، واستخْدَمَ ابنُ نُباتةَ الكِنايةَ في ستَّةِ مواضِعَ، منها قوْلُهُ: (**وَأَشْهَرِ شِعَارٍ**)، وقولُهُ:(**وَدَهَمَتْكُمْ عَسَاكِرُهُ**).
- ومِنْ خصائِصِ أسْلُوبِ هذهِ الخُطبةِ أيْضًا قِلَّةُ اسْتِخْدامِ المُحسِّناتِ البديعيَّة، فاستخدمَ منها مراعاةِ النَّظيرِ، والاقتِباسِ من القُرآنِ الكريمِ، لكنَّ خُطبَتَهُ لمْ تخْلُ من السَّجْعِ، لكنَّهُ جاء غيرَ مُتكلَّفٍ، وطلبهُ المعنى.
- وقدْ تميَّزَ السَّجعُ في كلِّ فقرةٍ من الخُطبةِ بتغيير حُروفِ فواصِلِهِ وذلكَ يدخُلُ في التَّنبيهِ على تغْيِيرِ المعنى منْ خِلالِ موسيقى اللفْظِ، والانْتِقالِ إلى فِكْرةٍ جديدةٍ من أفكارِ الخُطبةِ، وظَهرَ فِي أسْلوبِ الْخَطيبِ بالْفقرَاتِ المَسْجُوعَةِ إيجازٌ لطيفٌ على السَّمْعِ جَمُّ الفَائدةِ، احْتملَ كثيرَ المعْنَى بقليلِ اللَّفْظِ ورائِقِهِ، مع مُلاءمَتِهِ الغرضَ المَسُوقِ فيهِ.
- جاءَ الوصْلُ بينَ الجُملِ للتَّوسُّطِ بينَ الكمالّيْنِ، حيثُ اتَّفقتْ في الخبريَّةِ أو الإنْشائِيَّةِ لفظًا ومعنًى، واتَّحدتْ مُناسباتُها.

- جاءتْ جُمَلُ الخُطبةِ مُطوَّلةً، بفضْلِ القُيودِ الَّتِي اتَّكأ عليها ابنُ نُباتةَ في تربيةِ الفائدةِ، حيثُ استعانَ بالتَّقييدِ بالوصفِ بالجُملِ، والتَّقْييدِ بالجارِّ والمجرورِ، والإضافةِ، والحالِ، والتَّمييزِ، وجاءت هذهِ الجُملُ المُطوَّلةُ فيها نوعٌ من الإيجازِ، لكنَّها أعطتْ صُورةً أشملَ، وجوانبَ أكثرَ مِنَ المعاني والأفكارِ.
- اتَّكأ ابنُ نُباتةَ على قلبِ النَّعْتِ؛ تركيزًا على الصِّفةِ، وتأكيدًا عليها، واهتِمامًا بِشأنِها؛ بِذِكْرِها أوَّلًا، ثُمَّ ذِكرِ موصُوفِها.

***

الخاتمة

الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، والصلاةُ والسلامُ على أشرفِ الخلقِ أجمعين، وعلى آلِهِ وصحْبِهِ ومَنْ تبعَهُمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّين.

فبعدَ تلكَ المُحاولةِ مِنْ إلْقاءِ الضَّوْءِ علَى الْجوانبِ الْفنِّيَّةِ والأُسْلُوبيَّةِ والسِّيَاقِيَّةِ المُتعدِّدَةِ فِي خُطْبةِ ابْنِ نُباتةَ فِي ذِكْرِ المَوْتِ وَالْمَعَادِ ؛ فقدْ جاءتِ الخُطْبةُ ــ كمَا تَبيّنَ ــ عِبارَةً عنْ حِزْمةٍ مُتراصَّةٍ منَ الإقْناعِ، اسْتعْملَ فيها الخطيبُ طاقاتِهِ اللُّغويَّةَ والإبْداعيَّةَ والْفنِّيَّةَ والأُسْلُوبيَّةَ للإقناعِ والتَّأثِيرِ.

ومِن خِلالِ عرْضِ الدِّراسةِ لخُطبةِ ابْنِ نُبَاتةَ هذهِ، وتحليلِهَا تحليلًا بلاغيًّا وأُسلُوبيًّا ونقْدِيًّا؛ يُمْكِنُ أن تُجْمِلَ مَا توصَّلتْ إلَيْهِ الدِّراسةُ منَ النَّتائجِ الآتيةِ:

أوَّلاً: رُقِيُّ ألْفاظِ خُطْبةِ ابْنِ نُبَاتةَ، وظُهُورُ المَقاصِدِ فِيها.

ثانيًا: ظُهُورُ شخصِيَّةِ ابْنِ نُبَاتةَ القويَّةِ، الْواعِظةِ والمُنبِّهةِ والمُرْشِدةِ، والمُتمَكِّنةِ فِي صِياغةِ الأساليبِ البيانيَّةِ الرَّائعةِ الْقويَّةِ، الَّتِي تُعبِّرُ عنِ المَطْلُوبِ بِتأثيرٍ عالٍ وقويٍّ ومُقنِعٍ.

ثالثاً: حرصَ ابنُ نُباتةَ علَى سَبكِ التَّمهِيدِ لموضوعِ الخُطبةِ، بِكلماتٍ مُوحِيةٍ مُمهِّدةٍ له، دالَّةٍ عليْهِ.

رابعا: رَكَّزَ ابنُ نُباتةَ على الرَّبْطِ بينَ أجزاءِ الخُطبةِ، فظهرَ فيها حُسْنُ الابتِداءِ، وحُسنُ التَّخلُّصِ، وحُسْنُ الانْتِهاءِ.

خامسًا: جاءتْ أساليبُ الاسْتِفْهامِ، والنِّداءِ، والأمرِ في الخُطْبةِ في مواضِع تكْشِفُ عن صِدْقِ الإحْساسِ، وقُوَّةِ العاطفةِ الدينيَّةِ.

سادسًا: امتاز ابنُ نُباتَةَ في خُطْبتِهِ بخطابِ الْيقظةِ، وخِطابِ الْعقلِ، بوُقوفِهِ على مُشكِلاتِ مُجْتمَعِهِ، والتَّصدِّي لها، بأُسلُوبٍ قويٍّ مُؤثِّرٍ.

سابعًا: تَجلَّتْ خُطبةُ ابنِ نُباتَةَ في حُسْنِ الْبيانِ، ووُضُوحِ الصُّورِ، وسُهُولةِ

التَّراكِيبِ، وقُرْبِ المَعَانِي، وقُوَّةِ الألفاظِ، ووُضُوحِها، وصِدْقِ العاطفةِ الدينيَّةِ، وتَجنُّبِ الغُمُوضِ فِيها، وخُلُوِّهَا منْ مُفْسِداتِ الكَلامِ الْفَصيحِ، والْعُيُوبِ اللَّفْظِيَّةِ والأُسْلُوبيَّةِ، فقدْ جاءتْ قِطْعةً منَ الطِّرازِ الأدبِيِّ الرَّائِعِ فِي أزْهَى عُصُورِ الْخطابةِ الدِّينيَّةِ.

ثامناً: قلَّةُ التَّصْويرِ ببعضِ الأَسَالِيبِ البَيانيَّةِ، كالتَّشبيهِ، والمجازِ.

تاسعًا: خُلُوُّ الخُطْبةِ منَ المُحسِّناتِ البدِيعيَّةِ المُتكلَّفةِ؛ مِمَّا يُحقِّقُ لَها قُوَّةَ الطَّبْعِ، وحُسْنَ التَّأْليفِ، وجَوْدَةَ السَّبْكِ.

عاشرًا: اسْتِشْهادُ ابنِ نُباتَةَ بالقُرآنِ الكريمِ، وتدْعيمُهُ خُطبتَهُ بالآياتِ الوَاعِظاتِ؛ زيادةً في تنبيهِ المتلقِّينَ، وتأثيرًا فيهِمْ، وتأكيدًا لكلامِهِ، وهذه الآياتُ الكريمةُ استعانَ بِها في أكثرَ مِنْ موضعٍ في خُطبتِهِ، وختمَ بِها خُطبتَهُ؛ تلْخيصًا لمقصُودِهِ فيها.

وخِتامًا فهذِهِ مُحاولةٌ مِنِّي - لا أدَّعِي فيها قَصبَ السَّبقِ - لِلفْتِ الأنْظارِ إلى أهمِّيةِ خُطبِ ابْنِ نُباتةَ الفارقِيِّ، وبلاغتِها، وحاجةِ خطيبِ اليوْمِ إليْها، ولقدْ بذلتُ كُلَّ جهْدي في إخراجِ هذا البحثِ على هذهِ الصُّورةِ، وأرجو من اللهِ -ﷻ- القبولَ والتَّوْفيقَ.

وآخِرُ دعْوانَا أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ

***

المصادر والمراجع

- القُرآنُ الكريمُ.
- الأساليب الإنشائيَّة وأسرارُها البلاغيَّةُ في القرآنِ الكريمِ، د/ صباح عبيد دراز، ط١، مطبعة الأمانة- القاهرة، ١٩٨٦م.
- اشتِقاقُ أسماءِ اللهِ، لأبي القاسِمِ عبدِ الرحمن بن إسحاق الزَّجَّاجيّ (ت ٣٤٠هـ)، دار الرسالة- بيروت، ط٢، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
- إصلاح الوعظ الدينيّ، للمرحوم: محمد عبد العزيز الخولي، مطبعة الاستقامة بالقاهرة، ط٤، ١٣٣٧هـ- ١٩٥٨م.
- الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، ط٧، ١٩٨٦م.
- البداية والنهاية: للحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (٧٠١- ٧٧٤هـ)، تحقيق: د/عبد الله بن عبد المحسن التركي، مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر، ط:١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
- البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، عبد الرحمن حسن حبنَّكه الميداني، الدار الشامية، بيروت- لبنان، ط١، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م.
- تاريخ الأدب العربيّ – العصر العباسي الأول، د/ شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط١٩، ٢٠٠٥م.
- تاريخ الأدب العربيّ – العصر العباسي الثَّاني، د/ شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط١٢، ٢٠٠١م.
- تاريخ الأدب العربي- الأعصر العباسية، عمر فروخ، دار العلم للملايين- بيروت، ط٤، ١٤٠١هـ - ١٩٨٤م.

- تاريخ الأدب العربي في الأعصر العباسية- الأدب المحدّث إلى آخرِ القرنِ الرابع الهجريّ (١٣٢- ٣٩٩هـ)، (٧٥٠- ١٠٠٨م)، تأليف: عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت- لبنان، د.ت.
- تحرير القواعدِ المنطقيَّةِ، قطب الدين محمود بن محمد الرازي(ت ٧٦٦هـ)، مصطفى البابي الحلبيّ، ط٢، ١٩٤٨م.
- تهذيب الأسماء واللغات، للإمام أبي زكريا مُحْيِي الدِّين بنِ شرفِ النوويِّ، ط دار الكتب العلمية من نسخة مصورة من دار الطباعة المنيرية، د.ت .
- الجامع لأحكام القرآن، للإمام أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبيّ(ت ٦٧١هـ)، دار الفكر العربي – القاهرة، ط١، ١٤٤١هـ - ٢٠١٩م.
- جمهرة أنساب العرب، لأبي محمد عليّ بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسيّ(٣٨٤- ٤٥٦هـ)، تحقيق وتعليق: عبد السلام محمد هارون، ط٥، دار المعارف- القاهرة، ١٩٨٢م.
- خصائص الحروف العربية ومعانيها دراسةٌ، حسن عبَّاس، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ١٩٩٨م.
- الخطابة أصولها- تاريخها في أزهر عصورها عند العرب، للإمام محمد أبي زهرة، دار الفكر العربي، ط٢، ١٩٨٠م .
- دلائل الإعجاز، للإمام عبد القاهر الجرجانيّ(ت٤٧١هـ)، تحقيق: محمود شاكر، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط٥، ٢٠٠٤م.
- ديوان خُطبِ ابن نُباتةَ، عبد الرحيم بن محمد بن نُباتةَ (ت ٣٧٤هـ)، تحقيق: ياسر محمد خير المقداد، الوعي الإسلامي بالكويت، ط١، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م.

- تفسير الألوسي، للعلامة: أبي الفضلِ شهاب الدين السيد محمود الألوسيّ البغداديّ (ت ١٢٧٠هـ) مجلَّد ١٤، صـ ٣٢٥، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، د.ت.
- سِيَرُ أعلامِ النُّبلاءِ، للإمامِ شمسِ الدينِ محمد بن أحمد بن عُثمَّان الذهبيِّ المتوفَّى (٧٤٨هـ - ١٣٧٤م)، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، وأكرم البوشي، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، للإمام شهاب الدين أبي الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد بن العماد العَكري الحنبلي، تحقيق: محمود الأرناؤوط، وعبد القادر الأرناؤوط . ط١، دار ابن كثير، دمشق - بيروت، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.
- شَرحُ أحاديثَ من صحيحِ البُخاريّ، أ.د/ محمد محمد أبو موسى، مكتبةُ وهبة، القاهرة، ط٢، ١٤٣١هـ - ٢٠٢٠م.
- شرح ديوان خطب ابن نباتة، للشيخ العلامة طاهر بن صالح الجزائرى، قدم له واعتنى به أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية ـ بيروت- لبنان، ط ١، ١٤٢٨هـ ـ٢٠٠٧م.
- شفاءُ الغرامِ بأخبارِ البلدِ الحرامِ، لتقيِّ الدينِ الفاسي، ط دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، د.ت.
- صحيح البخاري، للإمام محمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦هـ)، مؤسسة زاد – القاهرة، ط١، ١٤٣٣ هـ، ٢٠١٢م.
- صحيح مسلم، للإمام مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت ٢٦٤هـ)، مؤسسة زاد – القاهرة، ط١، ١٤٣٣ هـ، ٢٠١٢م.

- علوم البلاغة البيان والمعاني والبديع، أحمد مصطفى المراغي، ط١، دار الآفاق العربية، القاهرة، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م.
- فن الخطابة وإعداد الخطيب، للشيخ علي محفوظ، دار الاعتصام، ١٩٨٤م.
- القائد سيف الدولة الحمداني، د/ حمدان عبد المجيد الكبيسي، وزارة الثقافة والإعلام – بغداد، ١٩٨٩م.
- الكامل في التاريخ، لابن الأثير الجزريِّ المتوفَّى سنة ٦٣٠هـ، دار الكتب العلمية- بيروت، ط١، ١٩٨٧م.
- لسان العرب، لابن منظُور، دار المعارف- القاهرة، د.ت.
- مُعترَكِ الأقرانِ في إعجازِ القُرآنِ، للإمامِ أبي الفضْلِ جلالِ الدِّين عبدِ الرحمن أبي بكرٍ السيوطيّ (ت ٩١١هـ)، دار الكُتب العلميَّة، بيروت – لبنان، د.ت.
- مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح، لابن يعقوب المغربي، ضمن شروح التلخيص، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د.ت.
- النثر الفنيّ في القرن الرابع، د/ زكي مبارك، دار الجيل – بيروت، د.ت، والموسوعة العربية، المجلد العشرون، دمشق، ٢٠٠٨م.
- الوافي بالوفيات: صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي، باعتناء: أيمن فؤاد سيد، ط٢، ١٤١١هـ - ١٩٩١م، دار صادر – بيروت.
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر ابن خلكان (٦٠٨- ٦٨١هـ)، تحقيق: د/ إحسان عباس، دار صادر – بيروت، د.ت.

***

فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة
المُلخَّص باللغة العربيِّة	٢١٥٥
المُلخَّص باللغة الانجليزيِّة	٢١٥٦
المقدمة	٢١٥٩
التمهيد: أوَّلا: نبذةٌ عن فنِّ الخطابةِ، تعريفِها، أهميَّتِها، ونشْأتِها، حتى زمنِ ابنِ نُباتةَ الخطيبِ	٢١٦١
ثانيًا: التعريفُ بابنِ نُباتةَ الخطيبِ	٢١٦٧
المبحث الأول: تحليل الخطبة محلَّ البحث تحليلا بلاغيًّا، من حيث ألفاظها وتراكيبها وصورها.	٢١٦٩
المبحثُ الثَّاني: خَصائِصُ الخُطبةِ محلَّ البحثِ، وسِماتُ أسْلُوبِها.	٢٢٠١
الخاتمة	٢٢٠٥
فهرس المصادر والمراجع	٢٢٠٧
فهرس الموضوعات	٢٢١١